مختارات فصول

عبد الحليم قاسم

طرف من خبر الآخرة

٢٦

library4arab.com
www.alkottob.com

library4arab.com
www.alkottob.com

مختارات فصول
سلسلة أدبية شهرية
(٢٦)

عبد الحكيم قاسم

طرف من خبر الآخرة

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٦

www.alkottob.com

library4arab.com

مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس التحرير:
د. سمير سرحان

نائب رئيس التحرير:
سامي خشبة

الاخراج الفني : راجية حسين

مدير التحرير:
نمر أديب

أول مارس ١٩٨٦

www.alkottob.com

● الموت

باب كبير له عقد عال جهم بسيط الزخرف في جدار عميق الصمت من كتل الحجر الأبيض عليها غبرة القدم. المصراع من غليظ الخشب المجزم بصفائح الحديد، المدقوق فيها مسامير كبيرة الرؤوس. الرحلة الى هنا محتومة ، والنية تولد في لحظة صمت مبهمة ، لها أصداء ربما تفوت السمع ، لكنها تصيب القلب . تظل تنقر على جلده المشدود حتى يكون خوف آت من مشاهد معروفة ومن مشاهد غير معروفة ، من تجارب مذكورة وأخرى قبل التذكر ، وعليه فهو خوف لايمكن الفرار منه ، ولايمكن اقتسامه مع الآخرين ، فهم خائفون حتى لايرى بعضهم بعضا . انما ينبغي أن يرحل الواحد بخوفه كما يرحل المجروح بجرحه يطلب له الطب حيث يكون للخوف طب .

والرحلة الى هنا تمضي في حارة ضيقة يتقارب فيها

www.alkottob.com

الصفان المتقابلان من واجهات الدور ، يحصران بينهما وهج الشمس ، والغبار ، وسخونة خانقة ، وحياة أمام أبواب البيوت وسخة ، كسيحة ، متخبطة ، توشك أن تكون ذاهلة عن غايتها ، ماضية فى غير سياق ، لاتقف لتسترد أنفاسها ، أو لتتأمل ذاتها • وفى الدور النساء منذورات للقعود والثياب السود والبكاء ، وقهر خانق يدافعنه بحقد اسود وغل مسموم ، والرجال قعود فى الباحة على رأس الحارة ، يصك الأرض تحتهم دبيب النساء فى قيعان الدور • هل تروض الذعر الكلمات الحكيمة والمواعظ الحسنة ؟ هل تفك الطلاسم المضروبة على القلوب المشتاقة لريق الأنوثة وريق الرجولة ؟ أى قدر لا يدفع أخذ بخناق قلوب الرجال وقلوب النساء ؟ •

تبدأ الرحلة من الباحة ، وتمضى فى الحارة ، على ايقاع كلمات العذاب فى مواويل الصبر ، ومشاهد الفجيعة فى حكايات المقدر والمكتوب • حتى اذا ما انتهت الرحلة الى هذا الباب فهو غفل بين كل الأبواب الاخرى • فاذا ما تأمله الواحد قليلا وجده مختلفا فى كل شىء • تكوين شديد الوطء على القلب يلجىء المتأمل الى الصمت • ويكون أسى يوشك ان يدفع الدمع الى المآقى • لكن الباب ـ بالرغم من ذلك ـ فيه طيبة وقرابة الى الوجدان •

www.alkottob.com

لا يعرف الواحد من أى تفصيلة فى ذلك التكوين الصارم تنبع تلك الطيبة وتنهمر • ربما من هذه المطرقة ، التى هى على هيئة كف أنثوى رقيق جميل من الحديد ، ممسك بكرة صـــغيرة تهوى على سندان ناتىء من جسم مصراع الباب • تشكيل أنيق وسط اطار الجهامة والجلال •

يتأمل الحفيد ذلك التشكيل حتى تولد فى قلبه بسمة تعزى ، تمنحه العزم • يدفع الباب ، ينفتح بسهولة كانت مأمولة، وان لم تكن متوقعة • لكن الصغير صامت وشارد • اذا أعاد اغلاق الباب وجد خلفه باحة صـــغيرة شديدة النظافة ، عميقة الصمت ومعتمة • الجدران مدهوكة بالطين دهاكة محكمة ملساء ، والسقف من حصر الغاب وفلق جذوع النخل • على اليمين باب غـــرفة مفتوح • على العتبة مداس الجد ، بلغة نظيفة حائلة اللون من جلد الماعز • الفردتان متجاورتان فى خطين متوازيين تماما • أرض الغرفة مفروشـــة كلها بحصير اصفر بياضـــه من القدم • الجد جالس فى الصـــدر • الغـــرفة خالية من الأثاث • الجدران شاهقة بلا شبابيك • مدهوكة بالطين، ملساء ونظيفة • السقف من حصر الغاب وفلق جذوع النخل وفيه فتحة يشع منها فى الغـــرفة ضـــوء باهت خفيض •

www.alkottob.com

الجد شديد النحول • جلبابه الاسـود الكشميرى الثمين معلق على كتفين مدببين ، تحته صدار ناصع من القطن له أزرار صـدفية • وجه الجد مخيف • له عين مطموسة بالبياض كأنها زلطة ، أو حبة عقد رخيص • العين الأخرى محمرة ، مخبوصة ، شائهة الجفون • الفك الأسفل محطوم معوج ، وعليه فالجد لا يتكلم بسهولة ، وهو يتجنب الكلام غالبا • لكنه تحت عمامته الناصعة الجليلة ، له جبين نبيل يملأ قلب الحفيد بالحب • أمـام الجد حامل من الخشب المشغول ، مفرود عليه دائما كتاب كبير يبسط عليه الجد كفيه ، أو ما بقى من الكفين• فانه فى الحقيقة قد طاشت كل اصـابع يديه • لكن ما بقى منهما عليه وسامة ، حتى ان الواحد ليتصور أنه هكذا ينبغى أن تكون الأيدى • يجلس الحفيـد قبـالة الجـد لا يقترب منه ، والجد لا يتغير سكونه • ويتأمله الحفيد ويسأل نفسه ، ماالذى بقى من الجد بعد أن نقص العين واليد واللسان ؟ ثم يسأل الحفيد نفسه أيضا ، وبالالحاح ذاتـه ، ما الذى نقص حقيقة من الجد ، اذا كان بعـد مازال انسانا حبيبا ؟

الجد يقيم هنا ، فى هذه الدار ، وحـده • والدار كائنة فى وسط البلد تماما ، تنتهى اليها كل الحارات •

www.alkottob.com

وهى أكبر الدور ، ولها ماليس للدور من مهابة وجلال · ومع ذلك فهى كائنة من الدور ، ومن وعى الناس ، فى منطقة شديدة الغموض والاستغلاق، والرحلة اليها شاقة، وان سألت عنها تلكأت الاجابة ، أو كانت السلامة فى الصمت · لكن الواحد يستشف يقينا سائدا بأن الجد قديم ، تنتهى اليه أنساب الأحفاد المنتشرين فى دور البلد جميعها ، وهو يقين مقلق ، لكنه محتوم ، لابد من الصبر عليه واعتياده ·

اما هذا الحفيد فهو مشغوف بالجد شغفا مكتوما ، لا يبتذله بالبوح او الثرثرة · لكن الكتمان لا يخفى سره عن العيون القلقة ، والأفئدة المتوجسة · انه علامته المميزة ، والناس تحيطه باللحظ المرتاب والخوف · لكن لا فكاك ، اذاما حلت لحظة الصمت ، وغلت مراجل الحقد، وانتشرت مساحة الخراب ، اذ ذاك تكون الرحلة للجد مقدورة · يدخل الحفيد عليه فى غرفته ، يجلس قبالته، ويبقى وقتا طويلا صامتا · ثم يبدأ يلعب ، أو يغنى ، أو يتشقلب · يتمتع بأمان عميق وحقيقى ، ويكون على سجيته ، وعذبا ·

الجد تخدمه امرأة ناشفة ، ضئيلة ، تبقى دائما فى غرفة صغيرة مظلمة داخلية · والحفيد ، على كثرة

www.alkottob.com

ما رآها ، لم يتحدث معها أبدا • وهـو لايعـرف كيف يدعوها الجد اليه • فهو لا يناديهـا ، انما يغيم وجهه بسحب من القلق ، فاذا هى قادمة • تخلع مداسها على العتبة ، تزحف على الحصير حتى مجلس الجد ، تقرفص قدامه ، وتنظر الى وجهه • ومن دون ان يقـول الجد شيئا تعرف ما يريد ، ودائما يكون ذلك كتابا تأتى به، وتفتحه على الصفحة المطلوبة ، وتفرده أمام الجد ، وتحمل الكتاب الآخر وتمضى به • كان الحفيد يعجب من تواصل بغير لغة • ويدفعه هذا الى الظن بأن من الحواس ما هو قبل الحواس ، وربما كان أبلغ خطابا وأكمل انصاتا • ولو أنه أحب الجـد حبـا عميقـا لايشـغله عنه لعب ولا درس ، ولو انه قرأ كتب الجد كلها ، واحاط بما فيها من حكمة وعلوم ، ربما كان بينهما هذا التواصل وربما أحس بالجـد فى الليل وهو نائم بين محبة أمـه ومحبة أبيه ، ولكان قام على همس النداء الغامض ، لبس حذاءه ومشى فى الحارة حتى الباب ، فتحه ودخل على الجـد ، قرفص قدامه وعرف ما يريد • عليه اذن ان أراد ذلك الوصال أن يدرب نفسه على حب الجد ، وعلى قراءة كتبه قراءة الدرس والحفظ •

لكن ما هى صلة المرأة بالجد ؟ انها قريبته بشكل

www.alkottob.com

أو بآخر · لعلها ابنة أحد أعمامه الذين ماتوا فى الزمن القديم · لا احد يقول للحفيد عن قرابة هذه المرأة للجد · ربما لأن ذلك ليس مهما · السكة الى الجد ليست القرابة، بل الحب والقراءة · كيف لم يدرك الحفيد هذه الحقيقة وهى قريبة اليه تكاد تلامس أنفه ؟· القراءة والحب · الحب والقراءة · لكن أهو طريق طويل يستغرق الحياة كلها ، ولا تكون ثماره الا فى الهرم ؟ · ضحك الحفيد اذا تخيل نفسه عجوزا ناشفا يأتى من الغرفة الداخلية على قلق الجد ، يخلع مداسه على العتبة ، ويزحف على الحصير حتى يقرفص قدام حامل الكتب · ضحك جدا ، وتشقلب فى مكانه من السرور ·

واذا ما رأى ان الجد غارق فى القراءة ، مشغول بها عما عداها ، قام متسللا الى خزانة الكتب فى الغرفة الأخرى · صمت ورائحة تراب واحساس بالاستحالة يديخ · رفوف الكتب لصق الجدران طالعة من الاض حتى السقف · يسقط على الكعوب الجلدية الضوء من كوة السقف · الأرض مفروشة بحصير تتوسطه طبلية واطئة، عليها أوراق مختلفة ، ودواة وريشة ، وحق مسحوق التجفيف الأبيض · ثم تلك الاسطوانة الكبيرة من النحاس الاصفر ·

www.alkottob.com

يتناول الحفيد الكتب مجلدا بعد مجلد · يقلب فى الواحد قليلا ثم يتركه ليأخذ غيره · عدته من الحروف والكلمات والتراكيب والانشاء لا تعينه على القراءة ، لكنه مع ذلك يعـاود تقليب الصـفحات وتأملها · انها السطور قادمة من حيث لا يعلم احد ، وماضية بلا رجوع تحرث فى القلب · أتراها تقدر المقادير وتصنع للدنيا الناموس ، أم انها العبرة التى تصنع بعد ذلك الندم · انها على أى الأحوال ، حسنة التنسيق ·

وهو ان لم يقـرأ فهو يغرق فى تأمـل الحروف ، ونمط الكتابة القديم · فقى الكتاب يعلمه غير ذلك · فاذا كانت الميم ممدودة زيد عليها ألف · لا يفقه الحفيد علة ذلك · فالميم الممدودة حالة تطبيقها الميم وحدها ، ولا يحتاج الكاتب الا ان يشير الى ذلك برسم مدة فوق الميم · اما تلك المضاف اليها الف فهى حالة جديدة ، مدارها حرفان متجاوران · يسخط الحفيد على نمط الخط فى الكتاب ، ويتوله بكتب الجد ، حيث الحروف مزينة بأنواع من العلامات لكل دلالته · ويحب كذلك رسوم الكتب · هى لاتشبه الناس ، أو الناس بالأحرى ، لا تشبهها · والعبرة على أى حال بما فى هذه الصور من العلم والحزن ·

www.alkottob.com

فاذا ما تعب الحفيد جلس على الحصير الى الطبلية تمتد يده الى اسطوانة النحاس • كبيرة ثقيلة • يفتحها ويخرج منها لفافة من الورق • يفردها ويقرأ • تاريخ أسرتهم • هـذه الأرض كانت برية ترن فى جـوانبها صرخات السباع • ثم جاء رأس هذه الأسرة سيدى قطب الكائن مقامه فى المقبرة خـارج البلدة • وجاءت معه امرأته كريمة سيدى حسن الدين الكائن مقامه فى القرية المجاورة • بنى سيدى قطب وسط هذه البرية دارا ، وأنجب عيالا ، وزرع أرضا ، وملأ الدنيا خيرا وعمارا • يفرح الحفيد كل مرة يقرأ فيها هذه الأخبار ، فهو سليل هـذا القطب ، أو تكرير آخر له • يفك لفائف الورقة ويقرأ •

ثم انه أنجب فلانا وفلانا • أما فـلان فقد تزوج فلانة ، وانجب فلانا وفلانا وفلانا • وهكذا سطور بلا نهاية ، وأسماء بلا عدد • الكل من أسرة قطب ، والكل ماتوا ، والكل مدفون بمقبرة القرية الآن ، يتفكر الحفيد وهو يتأمل الأسماء بخط الجد العجيب ، كل اسم فى السجل يشى بتصور ما عن شخص ما يحيا ويضرب فى الأرض • السجل حياة أخرى نابضة • يعانى الحفيد السؤال الذى يستغلق عليه كل مرة ، أين الحقيقة ؟ ان عالم الشجرة ،

www.alkottob.com

من ساق وفروع وأوراق وبراعم ونوارات وثمرات ، يقابله عالم آخر مدفون من الجذور التى تتفرع ، وتمتد حتى تدق الى ما سمكه شعره ، ويقولون ان العالم المدفون من الشجرة أكبر من العالم الظاهر منها ، وأنه شرطه ، فأين الحقيقة ؟

لابد انها شاملة العالمين ، وان كل عالم منهما هو شقها • أسرة قطب حقيقة شقها مدفون وشقها ظاهر • الحياة شق الحقيقة ، وشق الحقيقة الأخـرى هو الموت • حينئذ انقبض قلب الحفيـد مما يعرف عن حياة اسرة قطب • من العقم والخراب فى الباحات والحارات ، فى الدور والحقول ، فى القلوب والأرواح ، على الأيدى وعلى ملامح الوجوه ، أتراها تعدو آفة هـذه الحياة على عالم الموت ؟ داخ الحفيد مما أودى به اليه الفكر • تطلع الى وجه الجد من مجلسه على الحصـير ، رأى سحبا رمادية كئيبة تنعقد على الملامح الجهمة •

ورأى كأنما تميل المرئيات على الايقاع البطىء لترتيل المرتلين ، وعديد الباكين ، وكأنما من هنا يصدر الايقاع المنغوم لكل صلاة ، ولكل دعاء ، ولكل بكاء كان أو يكون • من هنا يشع ويتوزع على كل دار وعلى كل قلب • فى صدر كل رجل سورة ، وفى صدر كل امرأة بكائية •

www.alkottob.com

يزداد الصمت فى قلب الحفيد عمقـا ، يترقب أن يشق أجواز الفضاء صراخ ينعى ميتا ٠

الصلاة والبكاء والقراءة ٠ الكلمات الطيبات فى الصدور العارفة الحكيمة ٠ الكلمات السمر فى الصفحات الصفراء ٠ السطور القادمة من الزمن الأول ٠ الأناشيد التى ترن فى الافق الأبعد ، النابضة فى عروق الوقت بلا كلال حتى تتجاوب القلوب بالأصداء ، حتى لا يكون عجز وتكون حيـاة ويكون موت ٠ فى هـذه اللحظة تجاوبت أجـواز الفضـاء بصراخ النـاعى يعلن النبأ المرتقب ٠

قال الحفيد فى نفسه ، سيكون على الجد الآن ، أن يكتب اسـما جديدا فى سجله ٠ لكن كيف يكتب الجد بيديه هاتين ؟ أهو يملى على العجوز التى تخدمه وهى تكتب له ؟ لا ، الخط فى السجل هو خط الجد بلا شبهة ٠ وهل يمكن قيد اسم ميت فى سجل الموت الا بمثل هاتين اليدين ؟ كان على الحفيد الآن أن يخرج ٠ أخذ مداسه وقام ٠ واذا رد مصراع الباب الضخم وراءه التفت اليه ٠ المطرقة الجميلة ، وسط الجهامة الجليلة ، كأنهـا تدعو المبارح أن يعود مرة أخرى والحفيد كلما خرج من هذا الباب كان على ثقة أنه سيعود ٠

www.alkottob.com

الموت يملأ البلد • صراخ النساء يسوط القلوب برعب وجزع • وجوه عليها غبرة • الرجال يحوقلون ذاهلين • النساء مشقوقات الجيوب ، مجروحات الخدود ، معصوبات الرؤوس بالطرح السود • الكل يجرى ناحية المأتم • يعرف الحفيد هذا كله ، وفى عمره جربه مرات بلا عدد •

يريد أن يزور الآن زوجة الميت • يحبها منذ سنين • وهو منذ سنين معتاد على رؤيتها • لها غرفة على السطوح، صغيرة وحيدة تحت ثقل الشمس ، ولو وضع على ظهرها شاهد لأشبهت قبرا • يدفع الباب ويدخل ويغلقه وراءه • بعد أن تعتاد عيناه العتامة يراها فى ركن من أركان غرفتها ، منشغلة بأمر من أمور معاشها • يقبع قبالتها ويبقى ساكنا • قد يجد شيئا يحكيه لها ، وقد لايجد • لكنها كانت لديها دائما حكايات كثيرة • تحكى تضيضة الكلمات ، رتيبة المقاطع ، باكية الصوت • يفك الطلسم عن الباب الى عالم وديع رقيق •

تحكى وكأنما لايعنيها أن يفهم • يتأمل وجهها الأسمر الوسيم ، وعينيها البنيتين ،وحاجبيها المتوقسين، وأسنانها الناصعة كقطع الصدف • يتأملها ويفهم كلماتها ، لايفلت واحدة منها أبدا • وأحيانا أدركت

www.alkottob.com

هى أنه يفهم • عندئذ أخـذت يده بين يديهـا • ومرة أحس بدفء اليدين حول وجهه • لاينسى هذه المرة أبدا ، ومازال يجد ذلك الدفء على خديه •

كان يزورها كثيرا • يدفع الباب ثم يغلقه وراءه ، وبعد لحظات من التحديق يراها • فى تلك المرة وجدها عارية ، جالسة فى الطست على كرسى تغتسـل • نظر اليها • ترددت قليلا ، ثم قالت : لابأس •• اجلس !• جلس قبالتها وهى واصلت استحمامها • كانت أحيانا تكف عن صب الماء حتى لاتطغى كركرته على صوتها وهى تحكى • تظل تقول والقطرات كالدمـوع منحدرة على جسمها • أحب الحفيد جسمها • الحمام يشيع فى سماره وردية يانعة ، وهى تحممه باعتناء وحنان • وعندما انتهت جففت نفسها متأنية • قال الحفيد فى نفسه ان المرأة كائن نبيل • وهى لاحظت فى عينيه محبة ، ربما بدأت تحكى من جديد حتى تبلل وجهها بالدموع ، جففته وارتدت قميصا خفيفا ، وقامت تمشط شعرها •

كان ذلك منذ سنين • وفى هذه السنين كانت المرأة تبعد عنه شيئا فشيئا حتى كره حقيقة انه بمرور الوقت يكبر ، وان لم يفهم لماذا • ولما أدرك أنه ليس لديها تبرير لذلك لم يسـألها ، وان أطاعهـا • لـكن زيارته لهـا

www.alkottob.com

استمرت • وهو يتمنى ان يزورها الآن فى غرفتها على السطوح • غرفة وحيدة فى وقدة الشمس كالقبر ، وهى معتمة من داخلها كالقبر • ودائما كانت تطن فى داخلها ذبابة خضراء من ذبابات المقابر •

مشى الحفيد ناحية صوت التلاوة والنواح • أمام باب دار الميت خلق كثير فى صفوف جنب الحيطان ، قعودا يرتلون سورة الصمد • فى وسط الدار المناحة ، وفى المندرة جمع الفقهاء يخيطون الكفن • لكن الحفيد صعد السلم الى الغرفة على السطوح ، حيث الميت مغطى بملاءة بيضاء ، وحوله دوائر النساء فى الثياب السود حتى الحيطان • على العتبة كومة احذيتهن • أخلى الحفيد لنفسه مكانا وجلس ساكنا • الندابة ناكسة الرأس ، مستورة بطرحتها • صوتها غامض المأتى ، فعال فى القلب • ماتقف عند مقطع حتى تنطلق النساء صارخات، ومن ثم تعود ثانية الى سطور البكائية •

حرير ثياب العزاء ، ودفء الاجسام المتزاحمة ، وسخونة الدموع والخدود الملطومة ، البكاء وهزيم سورة الصمد الآتى من الشارع ، آهـذه الحياة الثرة أخصبها الموت المدثر بالبياض فى وسط الغرفة ؟ ثمة قرابة بين

www.alkottob.com

الزخم فى هذه الحياة ، فى هذه اللحظة ، وذلك الذى فى الكتب فى دار الجد • الترتيل والمناحة، العلم بالموت، صامت مترب هناك ، وساخن نابض مبلول هنا • داخ الحفيد مما اودى به اليه الفكر • حن الى المرأة زوجة الميت جالسة عند رأس الجثة تبكى ، وتصرخ ، وتولول• لكن الحفيد يجد فى اعماق ذلك تلك النغمة الآسرة التى وجدها دائما فى أحاديثها وحكاياتها • انصت اليها بكليته • يود لو انها بكت ابدا أو تحدثت ابدا •

لكنه يجب ان يقوم • نزل السلم الى وسط الدار • مال على الغرفة حيث الفقهاء يخيطون الكفن • الفقهاء هم اكثر المعطوبين من اهل البلد عطبا ، واكثر المعلولين علة • يحملون فى أجسامهم من الموت أكثر مما يحملون من الحياة • وعليه ففيهم جسارة ، وفى سمتهم جراءة • ربما رسمهم هذا قسسا للمنون يستألفونه بالقراءة ، ويتحسسونه بلاخوف ، وربمافى جذل • هم شيوخ الحفيد فى الكتاب يلتزم ازاءهم بالانصات وحسن الفهم • خلع نعليه وجلس على الحصير ، بجواره السلة التى فيها ما تم شراؤه من جهاز الميت • قماش من الحرير والقطن ابيض واخضر ، حرير ومخمل • ليفة ناعمة ، وصابونة نابلسية ، وزجاجة عطر • يجوس الحفيد بيده فى

www.alkottob.com

السلة فتسرى فى بدنه لذة • الفقهاء يخيطون ويقرأون سورة ياسين • كل حافظ آية ، ثم يقـرأ التالى له الآية التالية • تتنوع الأصوات وتتلون القراءات فى سياق السورة الواحد • واذا كان الحفيد فى الحلقة فقد جاء عليه الدور • قرأ : «ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم لدينا محضرون» • فاجأه ان صـوته عال ، وان نغمته حسنة • سوف يكررون السورة حتى تتم خياطة الكفن •

قام الحفيد خارجا • مضى فى الشارع الى الخلاء • يبتعد وراءه صوت التلاوة والنواح قال فى نفسه انها كانت رياضة فى بستان الموت ، كابوسية وملذة • ود لو ضحك وأغرق فى الضحك ، أو قفز وتشقلب • هذا يكون أحسن مايكون عنـد الجـد • مشى السـكة الى المقبرة • هناك قبة سيدى قطب • الخطوة تقرب الماشى نحو المقام خطوة • حوله غيطان • الشواهد الطينية فى سطور منسقة • هذا سجل مكتوب على هذه الصفحة من الأرض بحجوم القبور وقوائم الشواهد • فى كنف سيدى قطب هنا الأحفاد الموتى مثلما فى كنف الجد فى القرية الأحفاد الأحياء • على مقام القطب ذات المهابة التى على دار الجد • وقف الحفيد فى مكانه • لم يقترب أكثر • أتراه يجلس القطب ، الآن ، تحت قبته بوجه شـائه ،

www.alkottob.com

ويدين طائشتى الأصابع ؟ أتراه يقيد اسم كل وليد ؟

دارت عينا الحفيد بين سطور القبور على صفحة الأرض • قلب الحفيد البصر بين القرية والمقبرة • هنا دار الذين ماتوا ، وهناك دار الذين لم يموتوا بعد • ومن البيوت هناك تصنع القبور هنا • وذلك الصمت الموحش المسيطر ، مصنوع من نسيج تلك الوحشة الضاربة أطنابها فى عقول الاحياء ، من الخواء فى أرواحهم ،من ذلك الفزع الذى يحجر العيون فى المحاجر، ويشل الأيدى ويأخذ بخناق القلوب حتى لاتكون قادرة على الفرح • ماهو ذلك القدر الفاجع الذى تحاول دفعه الأيدى المشوهة للجد ولسيدى قطب ؟• تطير الرياح فى شسوع الزمام على رؤوس الشواهد وسقوف الدور • تتسلط شمس الظهر على الحجوم الطينية حتى ماتلقى حيطان الدور وحيطان القبور جنبها ظلا • قريتان توأمان ، فى البعد القليل بينهما يدور الناس دائخين ، محاولين ، فى صبر ، استئناس العماء بسر التلاوة •

الآن يأتى الرسل ، رجال شمروا الجلابيب عن السيقان ، وحملوا الفئوس على الأكتاف • وتقدموا مهمومين ، لكنهم يخطون بلا تردد • تبعهم الحفيد • جلس يراقبهم على ظهر القبر ، بين الصبارة والشاهد •

www.alkottob.com

هم يحفرون ويحفرون • تفزع الخنافس وديدان الأرض من المفاجأة • لكن الفئوس تعمل بلا تردد ، حتى أصبح العمق مقدار قامة رجل • هنا بان الجدار • بدأوا ينزعون منه الطوبات واحدة وراء الأخرى ، حتى تدورت الفتحة المؤدية الى عرصة القبر ، تخرج منها الرائحة القوية ، والذبابات التى آفزعها الضوء •

هنا جمد الرسل أمام الفتحة المظلمة مبهوتين • انهم غائصون فى الحفرة حتى رؤوسهم ، يشرئبون متطاولين ويتلفتون بحثا عن اللحاد • يطل هذا عليهم فى مكانهم • خلف ملامحه الغليظة الجهمة ابتسامة يراها الواحد كما يرى المغمض الضوء • يسأل الحفيد نفسه ، متفكرا ، لماذا اللحاد قادر ــ من بين كل الناس ــ على آن يرافق الذاهب المفارق فى رحلته الى آبعد مما يستطيع الآخرون ؟• يلح السؤال على الحفيد ، وهو يرمق اللحاد، ولايجد الا الابتسام الغامض خلف الملامح الغليظة •

الآن يخلع اللحاد مداسه • يضم الفردتين ، النعل الى النعل • يضعهما بأناة على حافة الحفرة • يمد يديه الى الرسل • يسندونه حتى ينزل مستقرا على القاع • من جلوس يزحف داخلا الى جوف القبر ، تسبقه قدماه الحافيتان • يناوله الرسل قصعة من تراب جاف • هو

www.alkottob.com

الآن يسوى فراشا جافا ، ناعما ، من آجل الميت القادم

★ ★ ★

فالآن يسمع على البعد هزيم تلاوة جمهور المشيعين، ووقع خطاهم • وفى خلفيته صراخ جماعة النساء يعمق من جلال التلاوة ووقارها • والقبر مفتوح ينصت كما لم تنصت اذن من قبل • ذلك الباب الى الآخرة • الآن فى القبو المظلم يقعى اللحاد منتظرا • انها لحظة شديدة الوطء والغرابة • يتصور الحفيد ان جسم القبر فيه نبض وفيه شوق ، قلب يظل يخفق حتى يزاح الغطاء عن النعش ، وتمتد الأيدى تحمل الجثة تسلمها الى الفوهة المظلمة •

واذا تم ذلك حل الصمت ، لايسمع غير صوت الشمس الظهرية تضرب فى يوافيخ الرجال ، تحت تقاياهم من صوف الغنم الأحمر ، وهم شهود ينظرون • ومن الجمع الواجم تسلل فقى حافظ ، مشى الى ماخلف القبر ، هنا أقعى فى مسكنه يستر رأسه من الشمس بمنديل ، كأنما يستر به حديثه الى ساكن القبر الجديد• واذ خرج اللحاد أهيل التراب حتى ردمت الحفرة ، رتق الفتق بين الموت والحياة ، لحظة من الادراك والحكمة وزوال الخوف ، وان بقى وجه الأرض يحمل الندبة •

www.alkottob.com

مضى الجميع ناحية القرية ، وبقيت المقبرة وحدها في صمت • مازال الحفيد قابعا على ظهر القبر • الشمس تخبطه على أم رأسه بلا هوادة • يتأمل ظهور الماضين وأقفيتهم • دائخ ، وقلبه منقبض • ربما يعلم الراجعون ببقائه هنا ، يرمقونه بحذر ، ويرتابون به • أهو يحلم ، أم يهرف من الحمى ؟ ، أم أن مايراه حق ؟، وهذه هى تلك اليد الانثوية ممسكة بكرة صغيرة من الحديد على باب الجد • أضربته الشمس أم مايراه حق ؟• يحس عتامة غرفة الجد ورطوبتها ، ويرى الجد • يجلس قبالته ممتلىء القلب والعينين بالدموع •

الرحلة اليه اليوم لم تكن شاقة ، ولم تأت من أعماق الدور تلك الأصوات المسمومة بالضغينة والبغضاء • النساء اجتمعن ، القلب على القلب ، الحزن على الحزن ، القهر على القهر ، لابسات الأسود ، مجروحات الخدود ، تبكين على الميت بدموع ساخنة • ثم قامت زوجة الميت • جاءت لتجلس قدام قبر زوجها تؤنسه فى ليلة وحدته الأولى • انها رقيقة وعذبة • ترى الحفيد ، تأخذ وجهه بين يديها ، يحس سخونتهما • تسيل دموعه على أصابعها •

www.alkottob.com

● القبر

جـوف مظلم رطب عطن ، تطن فيـه الذبابات ، ويسـمع القلب دبيب الهـوام الغـامض فى الجحـور والشقوق • اللحاد جالس القرفصاء فى الظلمة • من مجلسه يتحرك بحذر • أنفاسه رتيبة ، وكفاه يتحسسان الأرض من حوله حتى يصطدما بعظام مازالت تعلق بها فلذات لحم ، وبقايا كفن • يزيح اللحاد العظام فى رفق ليفسح مكانا للميت الجديد • يزيحها فى رفق وتؤدة ، انها عظام رجل عرفه وجاوره العمر كله • كانت بينهما المودة • وكان بينهما الخصام ، ثم مات ، وهو الذى لحده بيده • وحينما علم بميت اليوم عرف انه سيدفن فى هذا القبر ، وانه سيكون لازما أن ينحى الجار القديم قليلا ليفسح مكانا للميت الجديد • وعليه فقد قال اللحاد فى نفسه : نعم ، سنراه اليوم بعد غيبة طويلة • الواحد فى الحقيقة يشتاق للناس ، طابت صحبتهم • أم كانت نكدة •

www.alkottob.com

يزيح العظام برفق • كأنما يشـم ريح الجار القـديم • ويجد اقباله عليه من بعيد • يطلب له الرحمة •

يضحك اللحاد ضحكا خافتا وهو فى جوف القبر يقول وهو يكلم الجثة مواسيا : الآن يأتيك رجل أنيس ليرقد الى جوارك • سيحكى لك طرفا من خبر الدنيا ، أقلها سيفرحك ، أعرف ، وأكثرها سيغضبك ، فأنت رجل قليل الصبر على حماقات الناس • ضحك مرة أخرى ضحكا واهنا • سوى بكفيه مكانا للميت الجديد • قال يكلم نفسه : لاينبغى أن نترك تحت جنبه حصوة تظل تؤلمه الى يوم القيامة •

استدار اللحاد فى مجلسه ،واستلم الجثة من الفوهة، يحملها على يديه حتى يريحها ممـددة فى المكان الذى سواه بيديه • القـدمان ناحية القبلة والكفـان على الصدر • فك خياطة الكفن ، نعم ، على الفـور سوف تنتفخ البطن وتتورم الأعضاء ، فاذا ضغطها الكفن يكون عذاب يجب أن يرحم الميت منـه • ها هو ذا مات هـو

www.alkottob.com

الآخر • بموته تنقص من دنيا رفاقه قطعة ، يستوى ان كانت بارة أو كانت شقية ، النقص فى الحالين مؤلم • نعم ، والواحد يظل يقدم العزاء ويستلم العزاء، ويمشى فى الجنازات ، ويلحد الموتى حتى يكون مشوار الى القبر لايعقبه عناء الرجوع • جلس القرفصاء عند قدمى الميت وقرأ • بعد انتهاء القراءة بقى هنيهة صامتا ، ثم قال فى نفسه : لا محيص عن الخروج •

يسد اللحاد فوهة القبر بالطوب ، طوبة بعد طوبة • يزداد جوف القبر كل مرة عتامة ، وتتلاشى منه رويدا رويدا تلك اللمعة الواهنة ، ويكون ظلام تام • عندئذ ينبض فى الميت وعى غامض متحسس لما حوله • يأتيه صوت الملقن : «ياعبد الله ، يابن امة الله ، توفاك الله •» • وذلك اذن هو الموت • مضى صوت الملقن : «ياعبد الله ، ذهبت عنك الدنيا ، وأنت الآن فى برزخ من برازخ الآخرة» • عينا الميت كتلتان من خبص بلا حياة ، لاتتحركان ، ولاتنفتح عنهما الأجفان ، لكنه يرى ، يرى برزخه الذى هو من برازخ الآخرة •

القبر والقبو المتقوس فوقه • الطوبات الرطبة ، وما تراكم عليها من طبقات سوداء شحمية • مابين

www.alkottob.com

الطوبات من جحور الحشرات والهوام ، تفجؤها رائحة الميت الجديد فتمضى تقلب فيما حولها أدوات استشعارها وتتأهب لرحلة الاستكشاف الواعدة بالشبع • ثم انه رأى جوف القبر يعبق بالذبابات العمياء ترهف السمع وتمضى على هدى أذنيها •• الأرض حواليه تراب رطب مدهن ، فيه حصوات وبقايا عظام • عن يمينه ويساره الموتى الذين سبقوه • قماش الأكفان اسود وتهتك عن جماجم وهياكل عظمية ماتزال عليها لطخ من لحم متعفن أو جاف • عرف الناس • أى اجتماع هذا يسوده الصمت والدهشة • غاب صوت الملقن ، وهو لم ينشغل بغيابه طويلا •

شغلته آلام بدأت فى بطنه ، وصدره ، ورأسه ، وساعديه ، ورجليه • آلام فى كل خلية وعرق من كيانه، استشرى الألم حتى أصبح عذابا يرى بصماته على جثته الممددة • انتفخت الجثة حتى لتكاد تنضو عنها لفائف الكفن • تورم الوجه واسود لونه ، طمست العينان واختلطت الملامح • تعفن اللسان والشفتان • نزفت

www.alkottob.com

المخارج وعبق القبو برائحة بشعة • هاجت ذبابات القبر دهشة • الجسم يترمم • ينهدم ذلك النظام البديع للخلايا التى فقدت الحياة فى اللحم والدهن والغدد ، فى القلب والمخ والكبد والرئتين • تتهرأ العروق ، وحبال الأعصاب وضفائر العضل • خرجت ديدان دقيقة من شرانق كأسنان الابر ، وأقبلت تنهش فى رميم الأحشاء •

ذلك هو الموت اذن • ألم فادح ، وهو لايستطيع أن يصرخ ، ولا هو بمستطيع أن يتقلب أو يقوم ، لكنه يرى • يرى وجهه الذى يحمل قناع الموت البشع • ومن وراء هذا يرى وجهه وعليه وضاءة وفيه وسامة نورانية • لمحة كتلك التى تشرق فى وجه عالم حافظ عارف بما يسأل عنه ، يرى قلق السائل وتوزع نفسه ، فيطل عليه بوجه فيه وسامة المعرفة • عرف الميت هذه اللمحة من الوسامة وفتن بها • الآن يراها فى وجهه فلا يدهش ولا يفرح ، بل يساوره يقين عميق بأنها هى الأصل ، وأن غيرها كان عارضا •

ذلك هو الموت اذن ، ألم ساحق حاصله تحرر الكيان من عنصر الجسد ، وبه يتحقق التحرر من النقص ، ذلك

www.alkottob.com

الذى شرطه الجسد ، والذى هو شرط وارد على الجسد . سقط الشرط والمشروط ، فانتفى القبح ، وتألقت القدرة على الرؤيا . رؤيا ليست هى الرؤية المتحققة من سقوط النظر على المنظور كاشفا مايواجهه منه ، بل هى ادراك المرئى كله ، ظاهره وباطنه ، فى حركته وسكونه اذا تجريان حسب قوانين وجوده ، بلا حفز ولا تثبيط . رؤيا تزداد صفاء ودقة وشمولا كلما اقتربت من الكمال براءة الكيان من مادة الجسم .

حينئذ حضره العمر كله على ظهر الدنيا ، كل الأشياء ، ماتحول منها ومازال باقيا ، كل الأوقات ، ما انصرم منها والذى مازال بعد حاضرا . كل الناس ، من مات منهم ومن لم يزل بعد على قيد الحياة . حضور مطلق منفى عنه القسر أو الابتسار أو الاخلال بالأنساق ، حضور لايثير دهشة ، ولايصنع فرحا ، ولايؤجج شماتة ولا ندما ولا حفيظة ، بل يكون معرفة .

رأى ليل قريتهم منورا بنجوم زواهر ، متقببا على بيوت ضمت فى حناياها هجوع الخلق وسكن الأشياء . ورأى أمه راقدة فى الغرفة جنب جدته فى بيت خاله . فى ساعة من الساعات التى أرقها فيها الفكر . زوجها

www.alkottob.com

اختلف مع أخيهـا ، والخـلاف تطـور الى نزاع أصـبح عداوة لدودة وصدعا يستحيل رأبه • ولما كان عرف الناس يفرض على الأخت أن تلزم جانب أخيها فى خلافه مع زوجها ، ظالما كان أو مظلوما ، فقد فعلت ، وتركت الى دار أخيها زوجا فى بطنها منه جنين ، وأيامها معه أحسن أيام عمرها •

كانت الأم عطوفة الوجه ناعمة اليدين • كانت فى العشرين من عمرها حينما تزوجها الأب الذى كان فى الرابعة عشرة من عمره • وقد أمكن الأم أن ترضى فى رجلها الصغير مشاعر رجولته المبكرة ، بأن كانت له أمام الناس زوجة مطيعة توقره ، وفيما بينهما كانت له أما رحيمة وأختا بارة ، وفى الليل أمتعته بنفسها ، وأعطته نعومة جسمها وعطش روحها • والناس شهدوا للزيجة بالنجاح • والحول حال على الزوجة ، ثالث مرة ، وفى بطنها من زوجها جنين • ثم كان الخلاف • جرت الحبلى بين دار زوجها ودار أخيها ، مصروعة بالخوف واليأس ، تريد أن تضـم الجـانبين قبـل أن يبتعدا بلا أمل فى الاقتراب ، لكن لا محالة •

فى ذلك الوقت كان الميت نطفـة تتخلق فى بطن

www.alkottob.com

أمه ، وهى راقدة جنب الجـدة ، فى الغـرفة ، فى بيت الخال • يرى الجسد المطروح • يرى هموم القلب وأرق الروح وعجز العقل • يرى الدم فى العروق ، وافراز الغدد ، وأخلاط العصارات ، ونظام الأعصاب • الخوف والحزن يسرى فى الكيـان المحطوم على الفـراش حتى تضطرب وتتشوه فيه كل نشاطاته الحيوية •

فى الوقت ذاته كان الخال يرقد فى غرفته جنب زوجته ، تحرق كبده كراهيته لزوج أخته وابن عمه • يهون عليه أن يموت ولاتكون أخته متعة لعدوه هذا فى الليل • وخادمة فى النهار • وفى الوقت ذاته كان الأب يرقد فى غرفته وحيدا ، الى جواره فراش زوجته الخالى، ينظر اليه ويتمزق ألما ، لكن الموت أهون لديه من أن يعتذر لابن عمه ، ويطيب خاطره ، حتى يأذن هذا بعودة الزوجة بحملها لدار زوجها • يشمله الليل ويشمل الجدة التى تتعذب بعذاب ابنتها ، ولاتعرف سبيلا لشىء • كلهم ينتظر مولودا يسرى الى جسمه التلف من جسم أمه ، حتى يولد معلولا علة تبقى تشوه قدر حياته حتى يموت •

www.alkottob.com

الآن يعرف الميت أن خاله كان يحبه ، وانه كان يتمنى أن يتخذه ولدا ، فهو لم يعقب سوى بنت واحدة انعدم رجاؤه فى خلف غيرها • لكن الخال كان يرى شبه ابن الاخت بأبيه ، ويعرف آنه صائر له على أى حال • يعرف هـذا فيعميه الغضب • ويعصف بآختـه وبابن اخته • ينام الطفل جنب آمه فى الليـل ، يرى عينيها اللتين ماتت فيهما كل فرحة ، وجسمها الذى يذبل كل يوم • يرى حالها فيكره خاله كراهية مرة ، وينتظر يوما يأخذهما فيه الأب اليـه • لكن الخـال يطلق الاخت من زوجها بأمر القاضى • وفى اللحظة ذاتهـا التى سمعت فيها الأم نطق الحكم بطلاقها ، نشبت جرثومة السل فى رئتها • وفى عام كانت قد انهارت أمام جيوش الميكروب التى نشبت فى رئتيها وماتت •

ماتت الأم ، لكن الطفل يحمل فى جسـمه ماكانت عليه من العجز والرعب • بل انه يحمل فى جسمه آباه وخاله وجدته ، ما هم عليه من التمزق ، وما يعصف بهم من مشاعر ، وما يكبلهم من عجز ، يحمل الطفل ميراثه

www.alkottob.com

الأليم ، ويضرب فى جنبات دار خاله • حتى سأله القاضى بعد ذلك بأعوام ان كان يعرف اباه ويحب ان يعيش فى كنفه • أجاب صارخا نعم ، وجرى فألقى بنفسه فى حضن ابيه • اخذه الأب اليه • احبه كل الحب • اخذه معه حيث راح فى النهار ، واوسع له فى فراشه فى الليل ، يوسده ذراعه ويبقى ساهرا يرعاه ، وهو فرحان بأبيه وبخروجه من دار خاله • الآن يعرف أن الخال كان يقضى الليل فريسة للحزن •

ماتت اخته وامه ، وخرج ابن اخته ، وبقيت له ابنة معلولة ، وزوجة لايسعه أن يضع فى رحمها خلفا آخر •

يحس الابن أرق أبيه فى الليالى تشوب سعادته المخاوف • يخاف على حبهما ولايعرف مأتى أرق أبيه • الآن يعرف بأن الأب الذى هو دون الثلاثين كان يرغب فى الزواج • ولقد فعل • يرى الميت الآن نفسه وقد نام جنب أبيه على سرير العرس الكبير من النحاس الأصفر • ومن خلال نسج الكلة الشفيف يرى جنب السرير دكة عليها حشية ووسائد ، وعلى الأرض بساط ، وفى أقصى

www.alkottob.com

الغرفة خزانة بمرآة كبيرة • لكنه فى الصباح وجد نفسه نائما على الدكة ، بينمـا اخذت زوجة الأب مكانه على السرير • فى تلك اللحظة نشبت فى صدره لها كراهية بقيت فيه أبدا •

الآن يراها راقدة على الدكة جنب السرير يجـافى النوم عينيها ، ترقب فى خوف تلك اللحظة التى يدعوها فيها زوجها اليه • انها لم تحب الرجل أبدا ، أبا كان أو أخا أو بعلا • كلهم آهانها • وماكانت لتتزوج لولا أن قسرت • وهى اذ لم يسـعها ان تنجو من مـذلة الزواج بجسمها • نجت بروحها ، وأسلمت لزوجها جسدا باردا خاليا من الاستجابة ، كأنه لا يخصها •

ثم أرسله أبوه الى المدرسـة فى عاصمة الاقليم • سكن مع باقى الاعمام فى غرفة علوية فى بيت قديم • كان السلم النازل الى فناء البيت مظلما فى رائعة الظهر • وفى الفنـاء الذى ينتهى اليه السـلم بئر لجـلب الماء ومرحاض • والفناء مظلم رطب عطن مبلول دائما • كان يصدق ما يقال من ان الفناء معمور بالجن الكفرة • الآن يعرف أن الظـلام ، والرطـوبة ، والعفن ، والروائح الكريهة ، وأنفاس البناء القديم ، وتقلص ترائبه ، كل

www.alkottob.com

ذلك كان بجوف الفـراغ ، ويجعل له على الدماغ وقعا شديدا • ولما كان هو واهن بنية المخ والعصب ، فقد كان فعل ذلك كله عليه عجيبا يعرف ذلك الآن ، ويعرف انه لم يسلم من هذه التجربة عمره •

وفى المدرسة كان المعلم رهيبـا • وكان هو قرويا هيابا مرتبكا ، فأصبح فريسة لعصا معلمه لما يعرف أو لما لايعرف من الأسـباب ، حتى قرر أن يفر • مشى الى القرية عشرة أميال على قدميه ، يحفزه الشوق الى أن يلقى بنفسه فى حضن أبيه • لكن الأب اسود وجهه من الحزن حينما رأى عـودة ابنه الخـائبة ، وأمر باعادته فورا • وفر الولد مرة أخرى الى القرية من بطش المعلم، وعفاريت البيت ، وأيضا ليبحث عن حنان ابيه المفقود• لكن هـذا الحنـان ، من تكرار الخيبة والفـرار ، فقد الى الأبد ، وظل الولد يبحث عنه بلا جدوى الى الأبد •

لم يبق أمامه ، وقد فشل فى المدرسة ، الا أن يعمل فى الحقـل • ولاسـبيل الى أن يفهم الأب انـه لم يكن يستطيع أن ينجح • يمضى الابن سارحا الى الحقل كل صباح وفى ظهره عينا أبيه المغمضتان كراهية وحزنا بهما يستقبل ابنه عندما يعود فى المساء • وهو لايعرف

www.alkottob.com

فرارا الا الى هذا الأب • يفزع اليه مما يعانيه من ألم • يصطدم بصمته الكظيم ، اصراره الذى لم يتزحزح على ألا يغفر للابن فشله فى المدرسة •

فى الحقل كان يقابل ابنة خاله كثيرا • يراها الآن طويلة ، ناحلة ، ناصعة البياض ، آثيثة الشعر • تبتسم له وتحضه على أن يزور خاله المريض • يتصور آن هذا تعبير عن شـغفها به ، وهو شغف يمقته فى النسـاء • رفض باصرار دعوتها له ليعود أبيها • الآن يعرف انها لم تكن تحبه • انما كانت تحمل سفارة من الأب • وكلما أمعن هو فى رفض هذه السفارة كلما ازداد بغضها له ، وهى ترى أباها يقترب من الموت كل يوم ، مشتاقا لابن أخت يجحد خؤولته •

يرى آماسى تلك الأيام فى المقهى مع آصـحابه من ابناء القرية • كلهم كانوا مشغوفين بابنة حارة الفقراء • كانت هذه الفتاة خارقة الجمال فى عرف الناس على ظهر الدنيا • وكانت حسنة الحديث ، لبقة العبارة • يزعم كل شاب انها كلفة به • الآن يعرف • يراها وحيدة فى قلب الليل ، يقظانة ، والكل حولها مغرق فى النوم • تحلم بالزواج من ابن رجل ميسور من اهل القرية ينقلها

www.alkottob.com

من حارة الفقراء الى ظهر البلد ، حيث يكون لهـا دار وبهائم وعيال .

لكن واحدا من الشبان لم يعرف حلمها أو يهتم به . وكل يحاول ان ينالها . وقد كسبها هو . ورمز ذلك انها أسـلمته جسدها . يرى الآن رفاق الأمـاسى فى المقهى . أظهروا له الاعجاب ، وآخفوا احتقارهم الشديد له . فقد وصل اليها بما وعدها بالزواج . ثم بدأ يتنكر لها . تحققت البنت انه لم يكن جادا فى وعده . واذا بدأت تحس بجنينها غادرت القرية فى الليـل الى غير رجعة .

وبعد فرار البنية عاش باحساسات مضـطربة من الفخر والخزى . يعود بالبهائم من الحقل عند الغروب ، ليبدأ عسفه المسائى بزوجة أبيه . يهينها بالشتائم الى أقصى مايحتمل الانسان . وهى تنافح عن نفسها بكل مافيها من عزم . يأتى الأب يكفهما ، لكنه ـ وهو الأب الكبير ـ لايأخذ جانب أحدهما ، ولايعنيه حقا أن يقطع دابر تنازعهما . يرى الابن الآن أن الأب كان يخفى بذلك الترفع احساسه المرير بالهزيمة أمام جسد زوجته الجميل المفعم أمام هيامه بالبرود ، وعدم الاستجابة .

www.alkottob.com

عرف الأب أرملة فى القرية واتخذها خليلة • كان هذا أشد ماتعرضت له زوجة الأب من الاهانة • بكت كثيرا ، وتألمت كثيرا • وهو فرح بهذا شماتة فيها • يرى الآن ذلك الثالوث البشع ، الزوج والزوجة والعشيقة ، وكلهم كان بائسا تعسا • الأب يبحث عمن ترضى رجولته ، والأرملة تريد الخروج من وحدتها القاتلة بعد موت زوجها • والزوجة تتعسها الاهانة ، وتخاف على بيتها وأولادها • وقد وجه لها فى محنتها أقصى مايمكن من اهانة ، بالتذاذ وتشف ، وأصبح يود الأرملة نكاية بزوجة أبيه ، وايغالا فى ايذائها •

قرر الأب تزويجه من ابنة الأرملة ، دهش للقرار ، فلم يكن قد التفت للبنية قبل ذلك أبدا • كان واضحا أن الأب يبحث عن مبرر للتردد على دار الأرملة ، دون اثارة الأقاويل • بدأ يراقب الخطيبة فى سروحها ورواحها • ومرة رآها راقدة على الترعة ، فى ظل شجرة آمنة فى هدأة القيلولة من العابرين ، متخففة الا من قميص • كان جسدها بديعا • لكنها لم تحرك فيه شهوة ، بل اشمئزاز عميق يعرفه الآن ، ويعرف أنه بقى معه الى آخر أيامه معها •

www.alkottob.com

ذات اليوم قابل ابنة خاله ، وحدثها عن رغبته فى زيارة أبيها ، وأنه سوف يخطبها منه • وتقول البنت ان ذلك أصبح مستحيلا ، فقد خطبت لآخر • ساعتها تصور أنها حزنت لخطوبته المتأخرة ، الآن يعرف أنه حضرتها صورة أبيهـا الذى يحتضر فى الدار دون أن يرى ابن اخته • وانها أبغضته كما لم تبغض أحدا فى الدنيا ، لأنه ضن على خاله المريض بالزيارة ، وأنه يخطبها دون أن يفكر قبل ذلك فى ارضائها بزيارة خاله حتى كرامة لها • لكنه لم يعرف ساعتها كل ذلك ، وبقى يحمل فى قلبه حب ابنة خاله حتى آخر يوم من أيام حياته ، بعد أن أرغمه أبوه على زواج ابنة الأرملة •

يراه الآن ليلة دخوله بها • أمها والقابلة فرجا له بين فخذيها ليدب اصبعه فى فرجها يزيل بكارتها • لقد صرخت صراخا هائلا ظنه ساعتها ، غنجا ودلالا ، لكنه يعرف الآن أن اصبعه آلمها ألما فظيعا ، وانها كرهته فى تلك اللحظة كراهية بقيت الى يوم موته • كان يشمئز من شهوتها العارمة • كان يظن بها الظنون • الآن يعرف أنها لم يكن فى حياتها رجل غيره ، ولم تكلف الا بالولد الصغير ، تحكى له ويحكى لها ســاعات • وهــو يقضى الساعات الطوال حزينا على ابنة خاله التى قرر ألا يراها

www.alkottob.com

أبدا ، وحافظ على قراره حتى مات • الآن يعرف أنها كانت تحب زوجها ، وأنها كانت سعيدة بأولادها •

لكن صورتها محبوسة فى بيت زوج لا تحبه ، مفطورة من محبتها له ، هذه الصورة كانت ملء روحه ليلة دخوله بزوجته • وبعد أن خرجت الأم والقابلة بالمنديل الملطخ بالدم ، وتكومت الزوجة على الفراش تعيسه مكسورة ، خرج هو من الدار الى المقهى • ذهل الصحاب من عريس يترك عروسه ليلة العرس • أعجبوا بالقدرة على ضبط النفس ، والتعالى على المرأة ، وهو استمتع بالاعجاب صامتا • الآن يعرف ان زوجته ظلت تعانى مما لحقها من عار سنين طويلة •

عاش مع زوجته فى شقاق وكراهية مريرة ، وهو يتقدم فى السن الى الهرم • قرر أن يستقل عن أبيه بدار ومعاش وأرض وبهيمة • يعرف الآن أن أباه ارتعب من هذا القرار ، تزلزل خوفا على تدهور زراعته بخروج ابنه من كنفه ، لكنه ظل صامتا لا يقول شيئا • يومها كان يعرف أن خروجه قد يحطم أباه العجوز • عرف هذا وأصر عليه حتى يرغم العجوز على الاعتراف به ، برجولته وبضرورة وجوده ، لكن الأب لم يفعل • ظل ينهار يوما

www.alkottob.com

بعد يوم حتى مات ، دون ان تخبو تلك الكراهية فى عينيه اذا ما رأى ابنه قادما .

وبعد أن مات الأب أحس أنه ينقص وينقرض من داخله ، وأن جسده يذوب . انتشرت القوباء فى جلده . تدهورت وظائف أمعائه وكليته ومخه . تعلق بابنته الوحيدة تعلقا شديدا . بدأت تراوده حالة من الانجذاب الى التدين . يبقى فى المسجد ساعات طويلة مغرقا فى الصلاة ، مهملا زراعته وداره ومعاشه . يتردد فى الاماسى على حضرات الدراويش . يقرأ حتى يغيب ، ويذكر حتى تنتابه حالة تشبه الصرع ، فيأكل من تراب الأرض . يهوى من يوم الى يوم حتى قرار القبر .

الآن عرف مالم يكن يعرف ،وأحاط بكل شىء علما. وهو لم يفرح بما عرف ، ولا أعطته احاطته احساسا بالتفوق . لم ينقم على ماكان ، ولا سره شىء ، ولا أحزنه فقده . انه عرف فقط . وعليه فهو غير الذى كان لايعرف ، الذى كان معذبا بحرد الحب ، معذبا بحرد الكراهية مخبوطا بالذعر . عاش عمره خائفا خوفا شاملا من خطر محدق محيط لايعرف كنهه ، لكنه يحسه يقترب ويتهدد ، يخنق كيانه فى كل ناحية يحاول فيها

www.alkottob.com

هـذا الكيان أن يتحقق • الآن استؤنست المخاوف ، وهجعت ، وأصبحت قرارا واطمئنانا عميقا عمق الموت• انه الموت •

لقد جاء الى الدنيا بتكوين شائه عاجز ، ولم تكن الدنيا بقادرة على أن تمرض هـذا الكيـان وتعنى به • وتجنبه أن يصاب بالضرر ، وتجنبه أن يصيب بالضرر • بل انها زادت نقصه حدة • وعليه فقد بقى دائرا بين عنف الحب وعنف الكراهية ، وهما عاطفتان جوهرهما واحد هو الخوف • فهما فى الحق انفعال واحـد جارف يختلف اتجاهه ، لكنه لايكون أبدا غيرية ، أو أثرة ، أو مراعاة •

الآن يعرف فينفى عن كيانه العذاب • بل ان هذا الكيان يصبح جزءا من كل أشمل ، تتساوى معرفته بكل جـزء من أجـزائه ، ويتـوزع علمه على كل دقائقـه بالتساوى • معرفة لايشوبها ظل الخفاء ، أو الجهل ، أو القصور ، تلك الظلال التى هى مأوى التساؤلات والتشكك والارتياب والحيرة ، التى تولد القلق واللهفة والخوف ،

www.alkottob.com

فهى معـرفة ليست حاصلة من النظر الذى هـو مغالبة العجز ، بل من زوال العجز وحصول الموت .

* * *

الآن تلاشت من بدنه كل صورة من صور الحياة ، حتى النوية فى خلية فى نسيج فى عضو من الأعضاء ، أو حشى من الأحشاء . وبذلك ذهبت الآلام ، وأصبح الصفاء كاملا . وكأنما قوس القبو المنكفىء على القبر يعلو قليلا قليلا ، وتتسع من جوانبه آفاقه . يتم هـذا ببطء وبلا تردد ، حتى تبتعد جدران القبر لتشمل مقبرة القرية كلها . الآن هو صـعيد واحـد محشود فيه كل الموتى .

يعرف من رأى من الناس ومن سمع به . امتداد هائل من رقود ، كأنها الهدأة قبل الفجر فى باحة المولد الحاشد . وثمة حالة الموت والتحلل ، وثمة حالة الحضور المتحقق بالموت . وثمة تواصل كتواصل دوائر الضوء من عديد المصابيح . ثم تتسع الآفاق من كل الجوانب . محيط من ضوء فجرى يحيط بالدائرة الغسقية .

www.alkottob.com

أولئك الناس الموتى الذين ما رآهم ولا سمع عنهم. الآن تسقط الحدود ، وتتسع الآفاق الى ما لا نهاية له من ضوء فجرى لا مثيل لحسنه في فجر يوم صيفى . اذ ذاك يعرف أن هذه الآفاق اللانهائية تحيط بدنيا الأحياء احاطتها بدنيا الموتى ، كما تحيط الحديقة البديعة بداره ذات طابقين ، واحد لمن مات ، والآخر لمن لم يمت بعد .

الآن ماعادت المعرفة جزءا مضافا للكيان ، بل ان الكيان ذاته تحقق للكيان الأشمل ، واحتواء له ، فهو فى ذاته معرفة ، والرؤيا حقيقة معاينة ، والشوق مسرة ، والخوف أمان وقرار ، والتعلق وصال . فليأت الملكان طالعين من الكون الأشمل ، فقد جفت الأقلام وطويت الصحف ، والحدثة أصبحت الصورة ، والصورة رفعت الى الكلمة ، والكلمة هى السر ، مفاتيح الأبواب ومغاليقها، تملك الانسانحتى يموت، فاذا مات ملك السر. سقطت الأستار وانتفى العماء ، وكان النور . وها هما الملكان قادمان .

www.alkottob.com

www.alkottob.com

● الملكان

كيانان شـامخان يفيضان نبـلا ، متنفى عنهما أى نقص خلقى • الوجهان وضيئان • الرأسـان عليهما أجمتان من شعر • اللحى سـابغة ، والابتسام رضى ، والثيـاب بيض ، والأذرع تتطوح فى سلاسة لا قلقـة ولا متوترة • يمشيان حافيين ، لكن أقدامهما لاتحمل من الأرض وسخا • اذا حاذيا الميت أقرآه السلام •

الملكان : السلام عليك أيها الميت •

الميت : وعليكما السلام أيها الملكان ، كنت أظن أن لغة القبر سريانية •

ذلك بأنهما اذا سلما لم ينطقا حـروفا ، وهو لم يسمع منهما أصواتا ، انما هى نيـة ودودة ، عـذبة ، أدركها الميت وهى بعد رجفة تشمل روح الملكين ، وتحدث فى روحه سرورا يكون هو رده على تحيتهما •

www.alkottob.com

ناكر : لم نعجب أنك لم تظنها اللاتينية مثلا . انما اعجابنا هو بتنزيه لغة القبر عن اللغة اليومية المعتادة .

نكير : ومن حيث أن اللغة تولد أولا فى الوجدان رؤى معبرة عن رغائب أو مخاوف أو غيره ، تنزل الى الدماغ الحافظة باحثة فى محفوظه عما يلائمها من تراكيب اللغة . وغالبا ماتكون تراكيب أقل دفئا ودقة ، تعانى مرة أخرى النقص والتشوه عندما تتحول الى أصوات ، وايماءات ، دائرة بين القائل والسامع . لهذا كان الحق أن تكون لغة القبر رؤى الوجدان قبل أن تجرب النقص والتشوه .

الميت : الحديث منفى عنه اذن نقص الجسم .

ناكر : ومنفى عنه أيضا صفة الحساب والمساءلة عن الاحسان والاساءة .

نكير : لكن من حيث أن كل فعل انسانى يتضمن بالضرورة ، فى ذاته ، الحكمة منه ، فالانسان فى حالة تمحيص دائم لأفعاله حتى يدرأ الاختلال بين الفعل وحكمة الفعل . تلك هى المسألة .

الميت : تعنى بذلك النظر العقلى .

www.alkottob.com

ناكر : ان العقـل أحـد امكانيات الجسـد ، يرد عليه مايرد عليها من شرط العجز .

نكير : والعقل الجمعى كذلك يرد عليه مايرد على الجماعة من أوقات الانحلال ، أو حمق القوة والبطش .

الميت : انكما ترفعان الحكمة فوق العقل اذن .

ناكر : اننى لم أتحدث عن العقل ، بل عن عقل الفرد المعين فى الظـروف الانسـانية المعينة ، أو عقل الجماعة المعينة فى ظروفها الانسانية المعينة .

نكير : ولم يجر الحديث عن الحكمة ، بل عن حكمة فعل محدد فى ظروف محددة .

الميت : انه النظر العقلى فى نهاية الأمر .

ناكر : بل التأمل ، محاولة استكناه الاتجـاه الحقيقى لنبض الذات ، فى حـالة تحـرره من الخـوف أو الطموح أو الشهوة .

نكير : واختيار الفعل أو الامتناع الذى يؤكد وجـود الفاعل ولايحظر ترقيه ، ويؤكد وجود الآخـرين ولايحظر ترقيهم .

الميت : الحسـاب منتف اذن ، وعليـه فالعـذاب منفى بالضرورة .

www.alkottob.com

ناكر : فلايكون قبض ، بل فهم .

نكير : وحتى تكون مستويات علم المشتركين فى الحديث متساوية ، فقد كان شرط اشتراكك فى الحديث موتك .

الميت : اذا تمحض الأمر الى حديث ثلاثة أنا ثالثهما ، فما هدف الحديث ؟

ناكر : قياس المسافة بين الفعل وحكمة الفعل .

الميت : وما اذا كانت الأفعال مطابقة للشرع ؟

ناكر : ان الشرع أيها الميت من الأمور التى يجب آن نمحصها .

نكير : بهذا تتحول القاعدة من نموذج آعلى من التآمل الى محل لهذا التأمل .

الميت : انها تفقد استقرارها اذن ، تفقد قوتها الملزمة .

ناكر : وتكسب قوة ملزمة جديدة متحصلة فى كون القاعدة حافزة للفطرة ، وليست جابة لها .

نكير : هذه القوة الملزمةلاتكون آتية من فرض السلطان، بل من رغبة الخلق فى الالتزام بالقاعدة . بهذا

www.alkottob.com

تتميز الافعال بفاعلها ومحلها ، بالظروف المحيطة بالفعل والفاعل والمحل ، لا بنموذج آعلى للسلوك مسلم وملزم ·

ناكر : فلا يكون الفعل الأنموذج ، بل الانسان الانموذج ·

الميت : فما هى غاية الحساب اذن ؟

ناكر : هذا الانسان ، والى اى مدى تحقق ، وكيف عجز عن أن يتحقق ·

نكير : اى انه فى كل مرة يكون السؤال عن جحود الانسان لصوت داخله ، أو اساءة الانصات اليه · ذلك الصوت فى صورته النقية ، وقبل ان تشوبه الشوائب ، آو تزيفه الظروف هو ذلك المقدار من الموت الذى تحتويه الحياة ·

الميت : الموت ، حين يكون استمرار للحياة ·

ناكر : وعليه فليس ثمة ضبط للوقائع ، بل قراءة لها ·

الميت : البحث عن الموت تحت اكوام العجز ، ورداءة الوقت والناس ·

www.alkottob.com

ناكر : والنظر فى فداحة الاختلال بين الفعل وحكمته .

نكير : فى انتقال الفرد من الانسان الحق الى الانسان الدور أو الوظيفة .

ناكر : وما يكون فى ذلك من مسخ للفطرة .

الميت : يكون من أول المهام اذن آن نرى كيف نفهم الفطرة .

ناكر : انها رغبة كل كائن فى البقاء والترقى ، بدءا من أكثر صور الحياة بدائية .

الميت : وهى المزاحمة حتى يكون شرط بقاء الواحد قتل الآخر .

ناكر : الصحيح ان نفترض ان المزاحمة هى الصورة البدائية الشائهة لهذه الفطرة .

نكير : ثم تتجه الفطرة لتصحيح ذاتها ، حتى يكون كمالها فى الانسان الذى يكون شرط بقائه ، وترقيه ، بقاء الآخر وترقيه أيضا .

الميت : حتى ولو كان الآخر صورا أخرى من صور الحياة ؟

ناكر : نعم ، ان شرط بقاء الانسان وترقيه هو بقاء صور الحياة الأخرى وترقيها .

www.alkottob.com

نكير : وبدائية الفطرة عند صور الحياة غير الانسانية لا يكون مبررا لقتلها وابادتها .

ناكر : استنكار كل صور القتل والاضرار هو جوهر كل شريعة .

الميت : هكذا تكون الشريعة تعبيرا عن الفطرة .

ناكر : فى لحظات باهرة من تاريخ الانسانية .

نكير : حيث يكون الانطباق تاما بين الشريعة والفطرة .

ناكر : ذلك هو الزمن الذهبى لكل رسالة .

نكير : تحقق الشريعة عبقرية الفكر الانسانى ، وتحقق النبوة عبقرية الانسان الفرد .

الميت : ان ذلك يبدو رائعا حتى ليغدو مخيفا .

نكير : انه رائع حقا حتى ليؤدى الى اضفاء القداسة على الشريعة ، والمعجزة على النبوة ، وسط تهليل المؤمنين .

الميت : ان تقديس النصوص والايمان بالمعجزة هى أمور لازمة .

نكير : الأحرى أن تقول انها ضرورات أملاها الخوف ، الخوف من فوات لحظة الانطباق التام بين

www.alkottob.com

الشريعة والفطرة ، الخوف من تحرك الزمن بناسه اسرع مما تتحرك الشريعة ، لذلك تقف فى وجهه هذه الحركة بقدسية النصوص ، ونظريات التحريم والعذاب .

الميت : بغير هـذا يتحول الكتاب المقـدس الى ديوان من دواوين الشعر .

ناكر : انه لكذلك فى يد عبدة صالحة تقرؤه فى الليل .

نكير : والمعجزة تعمل على تغريب شخصية النبى واحالة عبقريته على اسباب عليا . وعليه فان كل نبى هو دائما آخر الانبياء .

الميت : انك لا تريد ان تترى اخبار الانبياء والرسالات فى الصحف والنشرا تالاذاعية .

ناكر : لماذا لا . ذلك يضمن ان تظل ابـواب السـماء مفتوحة .

نكير : ويكون ثمة الانسان المتأمل ، ذلك الذى غاب وسط جموع المؤمنين فى النظريات الكبرى .

الميت : ان فكرة الجمـوع ، وفكرة الضـبط فـكرتان لا تنفصلان .

www.alkottob.com

ناكر : نعم ، وعليه فان التركيب الهرمى هو الوارد الوحيد .

نكير : فى قمته الورعون والكهنة ، المنظرون أو الصفوة، المديرون أو الحفظة .

الميت : هنا يكون الجبر ضرورة لتماسك البناء الهرمى .

نكير : نعم ، الجبر الذى يصل الى العسف .

ناكر : اذا لم يكن الانسان صالحا ليكون لبنة فى بناء فليختف الانسان ، وليبق السلوك الأمثل .

نكير : وعليه فان العسف يتجسد على قمة الهرم ، فى فكرة أو شىء ليست الانسان ولا شبيهة به .

الميت : ثم ينقسم حقها على الوكلاء والحفظة .

ناكر : ويتجلى العسف أكثر مايتجلى فى وقوعه على القاعدة من الهرم .

نكير : على الطفل ، والمرأة ، والعبد والأجير ، والعاصى، بهذا الترتيب .

الميت : ان المرأة والطفل يحاطان عادة بكل رعاية .

نكير : ذلك هو تشييئهما حتى يكونا محلا لتحقيق رغبة الأب فى القوة ، والزوج فى الاستمتاع الجنسى .

www.alkottob.com

ناكر : وينبغى أن يكون العسف فادحا سواء أكان جحيما أو طردا من مملكة الرب ، أو تعذيبا ، أو سجنا ، أو نفيا ، أو سقوطا فى الفقر ، أو سقوطا فى العار .

الميت : ويكون الفردوس رائعا سواء أكان جنة أو مملكة الرب ، أو رخاء موعودا ، أو كان حياة البذخ يحياها الأثرياء والنجوم ، وتصورها الصحف ، وتعرضها على الناس .

ناكر : ويكون الحلم ، مع الفردوس والعسف ، متمما للثالوث .

نكير : والحلم فى كل رسالة ، هو وقت ليس ككل الأوقات ، وناسه ، ليسوا ككل الناس ، وقت مضى ولن يعود ، أو هو وقت ينبغى أن يجهد الناس ليحققوه . وهو فى الحالين بعيد ومرهق ، ويتضمن فى ذاته استحالة تحققه .

الميت : انه اما حقيقة تاريخية ، أو حقيقة علمية .

ناكر : انه فى الحالين غير متحقق تحققا كاملا ، لاتاريخيا ولا علميا .

نكير : وتكفر الرسالات كل محاولة للتشكك فى تاريخية

www.alkottob.com

الوقت الحلم أو علمانيته ، حتى تبقى له ضبابيته .

الميت : ان الحلم بهذا الشكل لايكون ملهما ، بل قوة مثبطة .

ناكر : نعم . من حيث تمزق الانسان بين الوجوب وصعوبة الوجوب حتى الاستحالة .

نكير : والانسان الممزق بين وجوب تحقيق الحلم ، وصعوبة تحقيقه حتى الاستحالة ، هو النموذج الصالح للبقاء فى قاعدة الهرم .

الميت : شرط الصعود اذن هو الانكار .

نكير : الانكار هو فهم شىء ، وادراك تناقضه وانكاره، وهو ليس شرط الصعود فى الهرم ، بل الوقوف خارجه .

ناكر : انه النفاق ، الحالة الثالثة بين الايمان والانكار هى شريطة الصعود فى الهرم ، انه النفاق .

نكير : بذلك تكون السلطة فى يد أكثر الجماعة علما بشريعتها ، وأكثرهم لإدراء لهذه الشريعة ، فى يد من يحولونها من فكر الى كتاب مقدس .

الميت : أى الى سلطة قهر .

www.alkottob.com

ناكر : ولكى يكون لبشرى هذه القدرة ، فانه ينبغى أن يعد لذلك اعدادا خاصا ، يجعل فى وسعه ممارسة العنف على نفسه ، حتى يقتل فطرته الطبيعية .

نكير : وتقيم الجماعة مؤسسات المعابد ، والمدارس ، وغيرها ، لقسر الجسم والروح ، وتحويلهما الى وعاء للمثل والقيم .

ناكر : ومن حيث أن الفطرة تكون أنقى ماتكون عندما تكون الحياة فى طفولتها ونضارتها ، عندما تكون الحياة فى أنبض صورها بالحياة ، فان الحياة فى هذه اللحظة بالذات هى هدف التحوير والتشويه .

الميت : الوليد .. الطفل .. الصبى .

نكير : حيث الحياة شديدة الهشاشة ، رغم انها شديدة القوة ، وعليه ، فتشويهها مأمول .

الميت : فنزعة البقاء والترقى ، عند الكائن الحى ، تتحول الى قانون البقاء للأصلح .

ناكر : وليس ذلك سوى تأبيد لمسلك صور بدائية من صور الحياة ، يصبح تبريرا للقتل فى كل صور من صوره ، قتل الأفراد أو الجماعات .

www.alkottob.com

نكير : وعلى ذلك فالانسان يمارس القتل بطيئا أو دفعة واحدة ، بوعى أو بغير وعى ، مستمتعا أو مشمئزا، على نفسه أو على غيره ، وحـده أو فى جمـاعة ، ويكون بما قتل بطلا ، ويكون بما قتل نذلا ، لكن القتل يبقى ظاهرة مألوفة مثل الريح والسحب ، وعادة يومية مثل التدخين والقهوة ·

الميت : هنا يكون الموت هوالمقابل الوحيد والممكن للقتل ·

ناكر : لكنهم يهـزأون من عبقرية الموت بالتـلاوات ، والشواهد ، والاضرحة ، والنصب ·

نكير : يحولونه الى مؤسسة لتأبيد المثل ، وتخليد القيم ، مثل المدارس والمعابد والكتب المقدسة ·

الميت : حينئذ يكون الركود خانقا · يكون كل انسان، وتكون كل جماعة مضروبة فى انبل خصائصها ·

ناكر : هنا ينبغى ان يستخلص كل واحد موته ، يأخذه فى يده ويدافع عنه ·

نكير : تلك هى السمة الاساسية فى عصور الشهداء · لكن أخبار هؤلاء كتبت بالحروف الجليلة فى الكتب المقدسة · والكتب رفعت فى المعابد الشامخة من المرمر والزجاج الملون ، وتليت فى نغم مؤثر ·

www.alkottob.com

ناكر : وحرمت كتب أخرى حاولت أن تعرف الموتى كما كانوا ، وأن تحبهم كما كانوا .

نكير : اذا كان ثمة كتاب مقدس ، فلابد أن يكون ثمة بالمقابل كتاب محرم ملعون . والأمر أنه ينبغى أن يكون هناك الكتـاب مطلقا ، وأن يبجل الكتـاب مطلقا .

ناكر : لكن الذى هناك هو المعبد ، وهذا فى المحل الأول قصر السلطة ، أى مقر جهاز القهر .

الميت : شموخ أقام أركانه فن مجرد من جوهره الصديق للانسـان ، ليكون عمله ملء قلب هذا الانسـان بالتهيب والخوف حتى الركوع .

ناكر : ان ثقـافة الوقت كله ، وفنه يكونان مسمومين بسم النظر للانسان من اعلى .

الميت : هنا يكون لابد من شريعة جديدة ونبوة جديدة .

ناكر : لكن ، من حيث أن النبى يكون دائما آخر الأنبياء فلا بد ان يأتى من بعده السلاطين والقياصرة .

نكير : هؤلاء يحولون الشريعة الى نظام للقهر ، بعد ان كانت نظاما من انظمة الفكر . مؤسسة التشريع تمسخ الى مؤسسة القانون ، مؤسسة النبوة تمسخ الى مؤسسة السلطة .

www.alkottob.com

الميت : المسألة اذن هى فى كل مرة اعادة صياغة الفرد ليصبح لبنة فى بناء هرمى ما ، تقليل حماسته لأن يكون بشريا ، واذكاء حماسته ليكون نمطا حتى تتحول هذه الحماسة الى استعداد لأن يقتل فى فرار مذعور أمام الحياة الحقة · وأمام الموت الحق ·

نكير : انك تنسى الجانب الآخر ، وهو الجانب الرائع والمهم فى كل رسالة · وتلك هى انها ، اصلا ، محاولة لتحرير الانسان ·

ناكر : وعليه فان قدر الانسان أن يظل أبدا يلد الانبياء ، وينشىء الشرائع · وطالما الناس أحياء سوف يظهر كل آن ، فى جانب آخر من جوانب الأرض ، نبى له معجزته وكتبه وشريعته · وتبقى حيوية مؤسسة الرسالة ، وحيوية مؤسسة النبوة ، هى حيوية رفض القهر ·

الميت : لكن الرسالة تمسخ ان توشك ان تبث ·

ناكر : لكى تولد رسالة أخرى ·

الميت : فى ألف عام ، ورغم ذلك لم تتسع المسافة كثيرا

www.alkottob.com

بين العبد والأجير • بل ربما كان تحت الثياب الأكثر نعومة كمية أكبر من القهر •

ناكر : حتى تكون النبوة بداية لعالم ، وليست خاتمة العالم • وحتى تكون الشريعة انطلاقا للفكر ، وليست قسرا على الفكر •

الميت : متى ، مادامت المعجزةوجه النبوة الآخر، والناس اذا يخرجون النبى يرون المعجزة ، ويخرون سجدا مؤمنين • وكيف مادامت الشريعة رهن كتاب مقدس ملزم بذاته ، ناف لغيره ، والناس ازاءه اما مؤمن أو كافر •

نكير : يكون النبى الذى تتحاور معه ، لاتتبعه ولاتحيل نبوته على معجزة ، بل على عبقرية الانسان فى مغالبة القهر •وتكون شريعة لاتعلى الكتب بل تعلى الفكر الانسانى ، شريعة لاتتوجه الى مؤمنين بل الى مفكرين •

الميت : تلك هى القدرة على تغيير العالم بهدف بقاء الانسان وازدهاره • ان ذلك يبدو سهلا ، حتى ليغدو مستحيلا •

نكير : انه شديد الصعوبة ، لكنه قدر الانسان •

www.alkottob.com

ناكر : أن تكون الرسالة فتحا ٠

الميت : كيف السبيل ؟٠

ناكر : الناس ٠

الميت : انهم هنا منذ الأزل ٠

ناكر : وسيبقون هنا الى الأبد ٠

نكير : يمارسون الموت والحياة ٠

ناكر : ويدافعون عن الموت والحياة ٠

الميت : كيف ؟٠

ناكر : ذلك هو مجاز القبر والحساب والملكين ٠

نكير : وضع مؤسسة الموت فى وجه مؤسسة القتل ٠

ناكر : أن يستأثر كل ميت بموته ٠

نكير : يستخلصه من يد الكهنة ، من الطقوس والتلاوات والمواكب ، من الشواهد والنصب والأضرحة ٠

الميت : كيف ؟٠

ناكر : بأن يملك الواحد حياته ٠

نكير : تكون لوحة يرسمها لا خطة يجد تفاصيلها فى سفر من الأسفار ٠ عند ذلك يكون القتل هزيمة

www.alkottob.com

فى كل مرة ، ويكون الموت انتصارا فى كل مرة ، ويكون تحقق الانسان وترقيه ٠

الميت : لكن الضجيج عال حتى لايسمع الواحد صوت داخله ٠

ناكر : مهما علا الضجيج لايسعه أن يكتم صوت الداخل، ولايمكنه أن يقتل الضمير الذى لاتنضب خصوبته وولادته للأنبياء والشرائع ٠

الميت : انه بعيد الغور ٠

نكير : لكنه هناك حيث القبر والحساب والملكان ٠

الميت : لقد مت وكانت الرؤيا ، ماكان وكيف كان ٠

ناكر : الآن نقيس المسافة بين الفعل وحكمته فى كل مرة ٠

نكير : وكيف استبدلت الحكمة من الفعل بمبرر الفعل ، حتى أصبح الانسان دورا مهمته ادامة المؤسسات القائمة ، وحراستها ، عن أن تكون محلا للمناقشة ٠

ناكر : وفى كل مرة كان هناك الصوت الذى يقول لا ، وكان انكاره موجعا ٠

www.alkottob.com

نكير : وتلك عظمة الانسان ، والبحث هـو عن لحظة تتشوه فيها انسانية الانسان وتهان عظمته ·

نكير : وتكون حياته قتلا للذات وللآخرين ·

الميت : اننى أرى الآن ، اننى أرى ·

ناكر : تلك هى الكلمة التى ننتظرها لكى نبدأ الحساب·

***

واذا يقول الميت أنا أرى ، فانما يتحصل ذلك ، ليس فقط فى العلم بالناس والأشياء، بل بها فى تغيرها المستمر على الزمن · واذا كان العلم الأول هـو زوال العجز بحصول الموت ، فان الثانى هـو اكتساب القوة بتمثل الموت ·

واذا كانت الرؤيا الأولى قد حررته من حرد الحب وحرد الكراهية ، وأعطته قرارا واطمئنانا عميقا عمق الموت ، فان الرؤيا الشاملة جعلته يعرف عرض الحب وعرض الكراهية ، ويعرف الخلاص · يعرف قدر العذاب ويعرف نعمة الرحمة ، ويعرف من بينهما جسر الموت ورحلة الانعتاق ·

ولم يعد الأمر أمر كومات عظام ، عليها بقايا أكفان

www.alkottob.com

ولطخات أو فلذات من لحم متعفن آو جاف مسود ، بل انها صيغة كان التى هى الأصل فى صيغة يكون • ولم يعد الأمر أمر الهوام مقبلة من الجحور آفواجا ، ولا الذبابات العمياء طائرة فى جو رطب عفن كهفى ، متكالبة طنانة ، ولا الديدان الدقيقة سمراء الرؤوس دؤوبة نهاشة • أمر التحول المجيد ، مجاز الملحمة الكبرى الممتدة على المساحة بين الخروج وبين الرجوع كرة أخرى الى حيث كان منه الخروج •

وعليه فلم يعد حوله عالم الموتى ، بل العالم مطلقا• لم يعودوا من عرف من الناس ومن سمع عنه ، بل الناس مطلقا ، الناس الذين هم هو • سقطت عن كل وجه الملامح التى تنسبه الى انسان ما فى وقت ما ، ليكتسب كل وجه ملامح الانسان فى الزمن • الانسان آبدا ، مات أو بعد لم يمت • تنفتق الحقيقة عن الحقيقة ، بلا كلال ، دائرة فى دولاب الموت والحياة بلا توقف •

وحوله تتسع الآفاق الى ما لا نهاية له من ضوء فجرى لا مثيل لحسنه فى فجر يوم صيفى ، آفاق تحيط بدنيا هى للناس فى الدارين ، دار القرار ودار القرار • والأمر فقط أن يروه ، أن يفتحوا داخلهم له ، حتى يكون كل كيان تحققا للكيان الأشمل ، واحتواء له •

www.alkottob.com

وجها الملكين يطلان على الميت • ليس فيهما فقط تلك الوضاءة والوسامة النـورانية ، التى تتحقق فى لمحة تشرق فى وجه عالم حافظ عارف بما يسأل عنه ، يرى قلق السائل وتوزعه فيطل عليه بوجه فيه وسـامة المعرفة ، بل فيه اشراقة وجه رسول ظفر بوحى السماء ، أو نبى حمل اثم الخطاة على نفسه ، فأصبح هـو الفعل والجـريرة والتطهر فى آن ، الانسـان كأعظم مايكون الانسان •

ليكن بدء الحساب الآن •

www.alkottob.com

www.alkottob.com

● الحساب

الميت : اننى مستعد للحساب

ناكر : فى طريقنا اليك تفكرنا فى اللحظة التى نعتبرها بدء لحسابك ، أى ميلاد لك .

نكير : ونحن فى العادة لانقابل صعوبة فى استنباط لحظة من حياة طفل ، تكون فيها فعالة مطابقة لفطرته .

ناكر : أنت ترى ، البحث اذن عن لحظة احتفالية .

الميت : أستعيد صور طفولتى وأجدها طيبة .

ناكر : وقد اعتبرناها ميلادا لك ، تلك اللحظة التى وقفت فيها فى المحكمة الشرعية تجيب على سؤال القاضى ان كان ذاك أباك ،وان كان يبرك ويصلك، وان كنت تريد ، غير مرغم ولا مكره ، أن تعيش فى كنفه ، فقلت بصوت قوى واضح أن نعم

www.alkottob.com

نكير : ان ماكان حولك من جو غريب ، جهامة القاضى ، وصيحات الحاجب ، وعسف الحراس ، وزحام الناس ، وغضب الخال ، وارتياع الأب والجدة ، كل ذلك لم يشوه رغبتك الحقيقية التى نبعت من أعماقك ، لقد كان شيئا عظيما ·

الميت : اننى على ظهر الدنيا لم أنس تلك اللحظة أبدا ، ودائما ظللت أتذكرها وأستعيدها بنوع من الأسى الدامع ·

نكير : ان ذلك طبيعى ولعلنا نعود اليه مرة أخرى ·

ناكر : نمضى من ذلك اليوم الى يوم آخر بعده ، بأعوام ، قررت فيه أن تهرب من المدرسة فى عاصمة الاقليم ، وتعود الى القرية ·

الميت : تلك قفزة كبيرة عبر السنين الى الأمام ، وكان المظنون اننى سأسأل عن كل صغيرة ·

نكير : تلك من الأخطاء الشائعة بين أهل الدنيا · الواقع أن الحساب وارد على المواقف الكبرى فى حياة الميت · مابين تلك المواقف تتكرر أشياء صغيرة يومية غير معبرة ·

ناكر : إنك أيها الميت كنت واهما فيما تصورته عن

www.alkottob.com

وجود عفاريت فى المنزل القـديم ، فى عاصـمة الاقليم ، لكنه على الرغـم من ذلك كان عظيما أن ترفض البقاء تحت تهديد الخـوف ، وأن ترفض كذلك وسائل التعذيب فى المدرسـة ، تلك التى ليست من التعليم فى شىء ، ولاتهدف الا الى تحويل الطفل الى كمية لينة من الطاعة والخضوع

الميت : واذا عدت الى القرية وجدت أبا غاضبا يأمرنى بالعودة ٠

ناكر : هنا نسألك لماذا عدت ؟٠

الميت : لم يسعنى أن أخالف أبى ٠

نكير : لقد خالفت خالك فى المحكمة الشرعية ، وكانت سطوته عليك أكبر من سطوة أبيك ٠

الميت : أرى الآن لحظة انصياعى لرغبة أبى ، وعودتى الى عاصمة الاقليم ٠ ربما يرجع ذلك الى قوة أبى ، الى مابدأ يظهر من ضعفى الجسمانى ، الى عرف الوقت الذى يجعل طاعة الأب واجبة ٠

ناكر : تكون «لا» ممكنة فى كل الأحوال ، طالما الانسان على قيد الحياة ٠ لا مبرر أبدا لأن يجحد الانسـان صوت داخله ٠

www.alkottob.com

نكير : عـدت الى المدرسـة وفى قلبك نية الهروب مرة أخرى . وعليه فانه بهذا انتهى المضاء وبدأ التمزق والحيرة والاختلاط .

ناكر : كان الهروب الثانى مجردا من الجلال .

نكير : لم يكن ادانة للحياة فى مدينة الاقليم بشقيها البيت والمدرسة ، بل اعلان للعجز عن احتمالها ، وعليه فأنت ترتمى تحت قدمى أبيك ، وتعطيه الحق فى أن يقرر بشأنك مايشاء .

ناكر : تكرر الهروب بعد ذلك حتى جاء قرار الأب بأن تعمل بالفلاحة .

نكير : كان ذلك فى الحق قرار الميت غير المعلن ، أحس به الأب وانفذه له .

ناكر : أحس الأب برغبة ابنه فى تقليده ، وانعـدام رغبته فى أن يكون شيئا آخر ، أعطاه امكانية أن يمتهن نفسه .

الميت : لا ، لم يكن هكذا شريرا .

ناكر : كان يقوم بدوره كمالك أرض ، وعين من أعيان القرية ، ولسوف يسـأل عن ذلك ، الآن نسـألك أنت .

www.alkottob.com

الميت : كانت القرية كلها تحبه ، ومن تلقاء ذاتها .

نكير : أمنت آلاف المؤمنين فى المساجد على الدعاء للراشدين والفاسقين .

الميت : ان المقارنة مجحفة .

نكير : انها المبالغة لتوضيح الصورة .

الميت : لم يكن ابى ظالما .

تاكر : كان على رأس نظام القرية ، وهو نظام من المالكين والأجراء ، من الجائعين الى المرضى ومن الشبعانين الى البشم ، وهذا نظام بطبيعته منتج لنماذج قابلة لأن يعسف بها .

الميت : انه كان على رأس هذا النظام ، بواقع القرابة الدموية اكثر من واقع الملكية الزراعية . هذه القرابة كانت رباطا بينه وبين الناس ، لهم عليه حقوق كما له عليهم حقوق .

نكير : هذه القرابة الدموية لم تعطهم الحق فى شروط عمل أفضل ، وهى فى الوقت نفسه جردتهم حتى من الشعور بالسخط على حياتهم ، حتى اصبحوا متعصبين لوضع ينمو فيه افقارهم وقهرهم .

www.alkottob.com

الميت : كان ملزما بمساعدة ذوى الحاجات ·

نكير : على أن يبقوا عند حد الكفاف ·

الميت : كان يساعد حتى من يريد ان يخرج ·

نكير : ليبقى عنصر الرضائية فى رئاسته ·

ناكر : ولقد كان هذا التصور موجودا فى داخلك ، لكنك لم تنصت اليه وقتها ·

نكير : أنصت بدلا من ذلك الى الأب يرتل الحكم والأمثال والمواعظ بصوت جليل عميق ·

الميت : كان الناس جميعا يسمعون له ·

نكير : لكن أنت تراه حين يعرى ، حين يعسف بك ·

الميت : كان ودودا خفيض الصوت ·

نكير : بذات الصوت الخفيض أمرك أن تذهب الى المدرسة ، وان تعود اليها مرة ، ومرة ، ومرة ، من دون ان يسأل نفسه عما تعانيه هناك فى البيت ، وعلى دكة الدرس · وبذات الصوت امرك ان تتزوج ابنة الأرملة ، دون ان يتساءل هل فى هذا الزواج مصلحة لك انت ··· وثمة امثلة اخرى كثيرة ·

ناكر : المهم فيها هو انك كنت فى أعماقك تجد المعارضة

www.alkottob.com

وتكتمها ، حتى قررت ان تنفصل عن دار ابيك بدار وأرض ومعاش وبهيمة · هنا فقط أعلنت معارضتك ، بدأت المعركة حينما اصبحت المعركة غير ذات موضوع ·

نكير : كان الأب قد انتهى الى انك لا تصلح للرئاسة بعده ، واعتبرك مسئولا عن هذا ، دون ان يفكر لحظة واحدة فى انه المسئول ، لأنه فى حياته لم لم يأخذ بيدك مرة ، وعليه فقد بقى يكرهك حتى موته ·

ناكر : انه سيسأل عن هذا ، انما نسألك عن نكوصك عن قول «لا» من الأول ·

الميت : اننى أرى الآن ·

ناكر : الآن ننتقل لنقطة تالية هى ايذاؤك الشديد لزوجة أبيك ·

الميت : لقد كرهتها منذ البدء ·

ناكر : بل لقد أحببتها منذ البدء ·

نكير : حينما رأيتها للمرة الاولى كنت فى التاسعة من عمرك · وهى كانت باهرة الجمال ، بعبارة أهل

www.alkottob.com

الدنيا ، وكان فى عينيها المرارة والقهر ، وهكذا فقد فتنتك صورتها · لكنك بدلا من أن تبدى حبك لها ، شحنت قلبك بكراهيتها ، وبدأت تؤذيها ·

الميت : لم تكن تريدنى أن أزنى بامرأة أبى ؟

ناكر : ألا تعرف من وسيلة للتعبير عن حبك لامرأة الا معاشرتها جنسيا ؟

الميت : ألم يكن ذلك هو الوقت ؟

ناكر : أول من يحس بالوقت الردىء هم أهل هذا الوقت، وسؤال القبر مؤداه لماذا يسكت الناس على الأوقات الرديئة وقلوبهم ضدها ؟

نكير : ولو انك كنت تأملت داخلك لرأيت جمالا مدفونا تحت التقاليد العفنة ·

ناكر : لكن ثمة مئة ألف طريقة للتعبير عن الكراهية ففتكت بها ·

نكير : نيابة عن أبيك الذى أبى عليه كبرياؤه أن يؤذيها جزاء برودها نحوه · وحتى تؤكد له أنه لا مجال لأى شك فى وجود شىء بينك وبينها · واذا تزوج أبوك الأرملة الأسن من زوجته ، والاقل جمالا ،

www.alkottob.com

زاد عسفك بالزوجة الشابة حتى صار بشعا ، وكان الأقرب لنفسك أن ترفق بها .

ناكر : أصبحت المسافة شاسعة بين أفعالك والحكمة منها . لانرى فى ما أقدمت عليه الرغبة فى تأكيد وجودك، أو فى ترقيته .

نكير : انما المحاولة أن تكون الجزء الشائه من أبيك ، بعد أن فشلت فى أن تكون الجزء الباهر فيه ، بلباقته وروائه وتراتيله .

الميت : اننى أرى الآن ، اننى أرى الآن .

ناكر : ننتقل الآن الى علاقتك بابنة خالك .

الميت : أعرف الآن أنها لم تحبنى ، لكننى بقيت أحبها أبدا .

ناكر : السؤال الآن هو لماذا رفضت أن تزور الخال المريض ؟.

الميت : كرهته بما أذانى وأذى أمى .

ناكر : ان الذى كان راقدا على فراش المرض ، محطوما، لم يكن هو الذى أذاك ، بل رجل بدله المرض . رجل كان يحبك ويتمناك ابنا له ، وهو الذى لم ينجب سوى بنت واحدة .

www.alkottob.com

نكير : الحق هو آن رفض زيارة الخال كان المقصود به فقط هو اهانة الابنة ·

الميت : انه فى هذه اللحظة ولد حبها فى قلبى ·

نكير : فى اللحظة التى عرفت فيها آن اهانتك لها برفض زيارة أبيها أصابت منها موجعا أحببتها فى اللحظة التى عرفت فيها أنها بالنسبة لك أصبحت امرأة مستحيلة ·

الميت : لكننى بقيت على حبها ·

ناكر : دون أن تعنى بسؤال نفسك عن شعورها ازاء ذلك ·

الميت : ظننت وقتها أنها أحبتنى ·

ناكر : ونحن نسألك عن وقتها ·

نكير : صلبتها على آخر صورة رأيتها عليها ، ثم آغرمت بهذه الصورة · عشت السنين تتجنب رؤيتها ، تغضى اذا مررت ببابها ، تبدو عليك المشاعر اذا رأيت زوجها ، أو أحد عيالها ·

ناكر : ذلك هو ماتشاء المرآة ، تحويلها الى موضوع لعاطفة أيا كانت ، آو رغبة آيا كانت ، والمرآة الموضوع ، المرأة الانسان لاتكون محل اعتبار ·

www.alkottob.com

نكير : عرفت هى ماتشيعه آنت حولها ، وكرهتك لذلك أشد الكره .

الميت : اننى أرى ، اننى أرى الآن .

ناكر : نمضى اذن الى علاقتك بالبنت الريفية .

الميت : هذا أعظم ذنوبى .

نكير : لست نادما عليه ندما عظيما .

ناكر : حينما ظفرت بها ، اذا جاز استعمال لغة شبان المقهى ، تحققت لك الرجولة بما تكن من عدوانية وجلافة ونذالة .

نكير : ولآخر حياتك تذكرت المتعة الكاملة بأسى سميته ندما .

ناكر : وكان ثمن هـذه المتعـة امـرأة فرت ، وجنين أجهض .

الميت : الخطأ ما اعتقدته آنها تحبنى .

ناكر : انك لم تمتحن هذا الاعتقاد ، حتى حين زعم كل واحد من شبان المقهى مثله لنفسه .

نكير : كان حبها حلمها بالزواج من ابن رجل ميسور ،

www.alkottob.com

وهو حلم اثارته فيها النظرة الواعدة فى عين كل شاب من شباب القرية ٠

الميت : ولقد أسلمتنى نفسها لأننى وعدتها بالزواج ٠

ناكر : انها فى الحق كانت تحدس فى أعماقها غدرك ، لكنها أرادت أن تنهى تعلقها بحلم تقترب كل يوم من اليقين أنه وهم ٠

نكير : وكانت النهاية لحظة أن قمت عنها متقززا منها تسرع لتغسل نفسك من سوائلها ٠

ناكر : انك لم تشرك أبدا امرأة أحبتك ٠ اذا تحققت من كراهية واحتقار البنت الريفية ، استمتعت بها ٠

الميت : ولم يكن أهل حارتها ليقبلوها بجنينها ففرت ٠

ناكر : كانوا يقبلونها ٠ مالم يقبلوه هو حلمها فى الخروج الى حياة أخرى ٠

الميت : كل واحد فى حارة الفقراء يحلم بدار وبهيمة ٠

ناكر : لكن ليس على حساب حارة أخرى للفقراء ٠ هذا هو الفرق ٠

الميت : اننى أرى ٠ اننى أرى الآن ٠

www.alkottob.com

ناكر : الآن ننظر فى علاقتك بزوجتك ·

الميت : نعم ، أرى الآن اللحظة ، أرى أبى جالسا فى عتمة المساء فى شرفة بيت الضيوف وحيدا شاردا · اقتربت منه · حدثنى أنه يريد تزويجى · ساعتها فرحت ، لكننى لم أقل شيئا ·

نكير : رأيت فى هذا اعترافا منه بك · فرحت لأنه يشركك فى ذلك الشأن مع الأرملة بأن يزوجك بنتها · لكن الزواج والمرأة التى ستتزوجها لم يشغلاك كثيرا ·

الميت : لقد رفضت فكرة الزواج ·

ناكر : ليس على الفور ·

الميت : نعم ، أرى ذلك الآن · كانت قد أمنت مرور الناس فى حر القيلولة ، فتخففت من جلبابها ، ونامت بالقميص الخفيف فى ظل الشجرة على الترعة · رأيت فخذيها العاريين ، تأذيت واشمأززت منها · قررت ألا أتزوجها ·

ناكر : أرعبتك أنوثتها العارمة · خفت أن تعجز عن قهرها · انصرفت عنها بقلبك وفكرك الى ابنة خالك ، المرأة المستحيلة ·

www.alkottob.com

نكير : بينما الانوثة العارمة هى دليل صحة المرأة الجنسية والنفسية ، وجدير بالرجل أن يفرح بها ·

ناكر : لكن وضعك فى أسرتك كان مقدما عندك على رجولتك ·

نكير : وكعضو بارز فى أسرتك ينبغى أن تذل امرأتك وتقهرها · وأول موضوع يرد عليه اذلال المرأة وقهرها حتى الافناء هو أنوثتها ·

ناكر : ولكى تكون قادرا على القيام بهذا الدور ، كان ينبغى أن تسكت صوت داخلك حتى الخرس ·

الميت : ان ذلك كله لم يكن تدبيرا متعمدا ·

ناكر : يسأل الميت عن الافعال التى يأتيها بضرورة دوره ووضعه الاجتماعى ، حتى مع عدم توافر قصد الاضرار ، اذا كان فى هذه الأفعال خطر على بقاء الآخرين وترقيهم ذلك هو مغزى سؤال القبر ·

الميت : المسار بعد ذلك مؤلم أعرف ·

ناكر : نسألك الآن عن ليلة الزفاف ·

الميت : ان دم الفلاح ليس الا شريعة القرية ·

www.alkottob.com

ناكر : لا • انه غير معروف فى حارة الأجراء •

الميت : بعضهم يتم هذا الاجراء •

ناكر : أولئك المتشبهون بالمالكين •

الميت : يكون الرجل على معرفة بامرأته فى الدار والحقل وربما يكون قد نام معها مرارا قبل الزواج ، وعليه فهو لايجد دما لخرقة الفلاح ليلة الدخلة • انهم يتخالطون بلا وازع •

نكير : اذا كان الرضى متوافرا فى الجانبين ، وكانت الموانع الشرعية منتفية ، وكان ثمة قدر من العلانية متوافرا ، فذلك زواج شرعى صحيح •

الميت : لاينتظرون حتى الحفلة الدينية •

نكير : انها غير مكتوبة ، انها ليست شرطا لصحة الزواج •

ناكر : نعتبر الفلاح بداية لزواجك •

نكير : بداية دموية ، والمسار بعد ذلك بغضاء شديدة ، ونزاع لاينفض •

الميت : لم تكن بالحمل الوديع • كانت شديدة الايذاء • تعرفان •

www.alkottob.com

نكير : كانت الحارة كلها ، كان مجتمع الرجـال وراء طغيانك عليها • لم تكن تعرف أين تفر ، لم يكن سبيل لدفعك عنها الا أن تؤذيك •

الميت : وقعت فى الذنب هى أيضا •

ناكر : نسألها عن هذا • الآن نسألك آنت •

الميت : كانت دائرة مقفلة من الظلم •

ناكر : كان ثمة صوت فى داخلك يهتف بك آن تقطع هذه الدائرة •

الميت : كيف ؟•

نكير : أن تأخذ امرأتك مرة بين يديك ، وتسألها ماذا بها •

الميت : كان ذلك وقتها بعيد الاحتمال •

ناكر : كان قريبا منك قرب داخلك اليك •

نكير : وكان فيه خلاصك • ربما •

ناكر : وكان بوسعك أن تفعله بعد أن هرمتما ، وهدأت العلاقة بينكما •

نكير : فضلت أن تحمل مواجعك الى الأذكار وحضرات الدراويش ، وامرأتك فى الدار •

www.alkottob.com

ناكر : حتى آخر لحظة أصررت على ألا تعترف بوجود امرأتك الى جوارك .

نكير : والأمر أنك من واقع تكوينك الجسدى ، والعقلى ، وما مر بك فى حياتك من أحداث ، كنت فى مسيس الحاجة الى حب المرأة . لكن هذا الحب ما أن يكون بقربك حتى يثير رعبك ، فتتحول الى العداء والعدوانية . أتعست نفسك ، وأتعست من اتصلن بك من نساء .

الميت : اننى أرى . اننى أرى الآن .

ناكر : ننظر الآن فى علاقتك بابنتك .

الميت : لقد أحببتها أعظم الحب .

ناكر : كنت تبقى بقربها . تتنصت على هواجسها بقلبك ، محاولا أن تستكنه مايهجس فى نفسها من خواطر ، والرعب يعذبك .

الميت : كنت مليئا بالقلق عليها .

ناكر : وكانت الأم ترقب قعودك للبنت ، ترجوك بصوت خافت أن تتركها تلعب .

الميت : كنت أحب لها أن تبقى دائما فى صون الدار .

www.alkottob.com

ناكر : كنت تحبسها ولاتدرى لماذا • تخاف عليها ولاتعرف من ماذا • تريدها أن تكون على صورة غائبة عن خيالك ، ولايسعك استحضارها • اما آن تكبر البنت وتنطلق وتزدهر ، فقد كان ذلك يرعبك ولاتدرى لماذا •

الميت : نعم •

نكير : مع أنك أنت عانيت من ذلك القسر الذى أوقع بك •

ناكر : وكانت الأم قد هرمت وتعبت ، فلم تستطع أن تخلص بنتها من براثن حبك الأبوى •

نكير : ترك عليها آثارا لاتمحى •

الميت : اننى أرى • اننى أرى الآن •

ناكر : ثم بدأت تتردد فى الاماسى على حضرات الدراويش والأذكار •

الميت : حزنت على موت أبى حزنا شديدا •

نكير : بل حزنت على نفسك • فقد كان الأب فى مجتمع قريتكم هو السلطة الوحيدة المخولة الاعتراف بك • وقد ظللت طول عمرك تحت قدميه ترقب هذا

www.alkottob.com

الاعتراف • فلمـا لم يفعل ، قررت الخـروج من الدار للضغط عليـه ، لكن الوقت كان قد فات ، وقراره أمسى نهائيـا • وقد مات عليه • وكانت هذه ضربة عجزت عن احتمالها •

الميت : كانت قواى الجسمانية والعقلية قد وصلت الى الحضيض •

ناكر : انتسبت الى طريق الصوفية •

الميت : التلاوة والذكر ، الانشاد والدفوف والرحلة الى المزارات الحبيبة •

ناكر : والتحرر من المكتوب والمنصوص والمفروض ، اغماض العينين عن صغائر الاخوان • النظر فى الذات ، اصداقها وتصـديقها • اسـقاط اسار الخوف عن عزائم المريدين ، حتى يكونوا قادرين على بناء المجتمع الأمثـل ، الذى يكون ازدهـاره بازدهار كل واحد من أعضائه •

الميت : هذا ماأردت •

ناكر : لا انك دخلت الطريق فرارا من واقع لم تستطع مواجهته ، دون ايمان • وطول الوقت كنت تحاول هزيمة الشك ، ولم تستطع •

www.alkottob.com

الميت : كان الذكر لحظة صدق هائلة ·

ناكر : واذا كانت هـذه اللحظة لم تعنـك على هزيمـة الشـك ، فلأن المخ كان قد هده المرض ، وماتت الارادة ، وعليه فقد رفع حساب القبر عما تلى ذلك من الوقت ·

نكير : وفتحت لك ابواب الموت ·

الميت : ولقد حسبته السكة الى عذاب القبر ·

ناكر : انما هو السكة الى المعرفة ·

الميت : اننى ارى الآن ·

* * *

كانت سكة طويلة شاقة ،وقد آتيت الآنالى نهايتها· يمضى الملكان مفارقين ، يغيبان فى الضـوء الفجرى كأنهما شعاعان فضيان · واذا كان الكيان المادى قد تجرد الى عظام جافة حائلة ، فان الميت يمضى الى ذلك الافق المضىء ليكون فى نسيجه نسيجا · فقد تحولت التجربة الى معرفة · معرفة لاتضمها بينها دفتا كتاب ، فانه يكتب من الكتب اقل القليل ، ومنه يقرأ أقل القليل عن أقل القليل من الناس والاشياء · اما معرفة الناس ، معرفة الذين يكتبون والذين يقرأون ، معرفة الذين

www.alkottob.com

لا يقرأون ولا يكتبون، تلك هى المعرفة الشاملة ، المعرفة المطلقة ·

ذلك بأن الناس يملكون الموت ، تحول التجربة الى معرفة · بهذا يكون كل موت انتصارا ·

ولا تكون حياة الناس ابـدا مثلما كانت قبل ان يموت أى انسان · وسيظل الناس يموتون ويموتون حتى تهزم مؤسسة الموت مؤسسة القتل ·

وهذه العظام الجافة البيضاء ، التى اكلت الأرض عنها اللحم والكفن · هذه العظام سوف تضمها الأرض اليها ، تحفظها فى صدرها كما يحفظ الفقى الحافظ آيات الكتاب الكريم · تبقى هنـاك ابدا · ناس فوق ناس · كل يشير الى شخصه ووقته · فكأن قلب الأرض كتـاب سيرة بلا بداية ولا نهـاية ، حروفه الجمـاجم ، والعظام هى النقط والنبرات · يا لقلب هذه الأرض من قلب ذكور ·

www.alkottob.com

وهذا الافق اللانهائى من ضوء فجرى يحيط ـ بدارى الدنيا دار القرار ودار القرار • يصيب كل قلب منه شعاع • لقد اصبح الميت فى نسيج هذا الافق اللانهائى الملهم ، بما احسن وبما اساء ، بما وسعه وبما عجز عنه ، لأنه عاش ولأنه مات •

www.alkottob.com

فتح الحفيد عينيه • مازال بعد جالسا على ظهر القبر تحت شمس الظهر • اشتعل الرأس شيبا ، وتضعضعت الحيل ،وهرمت الملامح ،وازداد حزن القلب، ولما يبلغ الكتاب اجله • فتح الحفيد عينيه ، لا يرى سوى دائرتين زرقاوين مؤطرتين بالاحمرار • لا يدرى منذ متى وهو جالس هنا تحت هذه الشمس ، لكنه دائخ عشى العينين • اتراه اخذته سنة من النوم جنب الشاهد والصبارة على ظهر القبر ، وفى النوم طافت به الاحلام العجيبة ، ربما • يريد ان يحرك ساقيه وذراعيه ليقوم لكنه عاجز تماما ومختلط الذاكرة • لابد وان الشمس ضربته فى يافوخه ، فهو دائخ وكل شىء فيه يوجعه • جمع حمل أوراقه وكتبه ، ضمه الى صدره ووقف مترنحا تتضح له المرئيات شيئا فشيئا •

www.alkottob.com

حوله حقل القبور ، يأنس بها آنس الراعى بالشياه الطيبة الوديعة • وضع حمل الكتب على ظهر القبر ومضى الى القناة ، ملأ ابريقه وبدأ يدور بين صفوف القبور • جنب كل شاهدة قبر صبارة • يسقى الصبارات • تلك احد الواجبات التى أخذها على عاتقه • الناس تقول ان صبارة غضة ريانة على ظهر قبر كفيلة بأن تمنع عذاب القبر • الناس عادوا الى القرية بعد أن دفن الميت • يتابع جلب الماء وسقيا الصبارات ، وتأمل أحوال الدنيا • لايسقى الصبارات ليعفى الميت من عذاب القبر ، انما يفعل ذلك لهوى فى نفسه • انه متعلق بنبات الصبار • اكثر النباتات حفولا بالحياة وحفولا بالصمت • وانه لثمة علاقة غامضة بين القبر والصبار ، ما هى ؟ ، لا يدرى • يحمل حمله من الأسئلة التى لا تجد اجابة ويمضى •

حوله حقل القبور • مربعات الصمت والشواهد وأصص الصبار ، كلها الآن مروية مثل قلوب مطوية على سر بهيج • وهو أيضا مبتهج • ضم الى صدره حمل كتبه ، وعزم على أن يزور القطب قبل آن يئوب • جوف القبة مبيض بالجير ، تشوبه سجحات تراب وتنصب فيه سرادقات العنكبوت والصمت • والضريح عليه كساء

www.alkottob.com

خلق ، وحوله سياج متخلع الخشبات • آهو الصمت أم عجز الانسان عن ان يسمع • الاسئلة التى بلا اجابة • اهو ذلك الذى ابتلى به ايوب المصرى • ايوب ذو الجروح ، كل جرح سؤال • ايوب الصابر على جروحه حتى يجد الرعراعة المباركة على شط ترعة من نيل مصر • يغتسل ويبرأ من بلائه • القطب عمامة خلقه ، وضريح خلق ، وصمت مبهم •

عليه الآن أن يعود • سلم على القطب وخرج • ألقى نظرة على القبور ومشى • استقام على السكة المؤدية الى القرية • يحمل حمل كتبه تحت ابطه • كتب وشرائح أوراق من كل صنف • ماتقابله ورقة فيها كتابة حتى يرفعها • يتأملها طويلا ثم يضمها الى اللفة • مازالت تفتنه الحروف منذ كان صبيا صغيرا فى الكتاب • واللفة تتضخم وتثقل • يصطنع لها جلدة تحميها من عرق يده • يصبر على حمله • حمل لم يفارقه منذ طلب العلم فى الأزهر •

كان أبوه يريده ، واعظاكبيرا ، أو شيخا يؤم الناس فى مسجد جامع • وهو اذ انتظم فى الدراسة قرأ كثيرا وأغرق فى التأمل • فى السنة الأولى أحبه الشيوخ كثيرا • فقط اشفقوا عليه من كثرة القراءة ، ونصحوه

www.alkottob.com

ان يقتصر على الكتب المقررة • ثم ان يأخـذ حظه من الضحك واللعب ومخالطة الاخوان ، والا فسد الدماغ والقلب من العكوف المستمر على الكتب • وهو حاول ذلك مخلصا • لكنه كان اذا رجع الى قريتهم نشبت فى الدنيا تلك الساعة العجيبة من الصمت ، وحملته اقدامه الى زيارة الجد • يقف امام الباب يتأمله حتى يمتلىء قلبه بجهامته ، عندئذ يتعلق بصره باليد النسائية الرقيقة ممسكة بكرة الحـديد الصغيرة ، يشمل الاسى روحه ، وتنتشر على وجهه ابتسامة تعزى • يدفع الباب داخلا •

يميل على غرفة الجد • يجلس قبالته على الحصير • نفسه ضائعة وفى وجه الجد حنان ورحمة • لحظة تعز على الوصف • اذ ذاك تولد فيه الرغبة ان يقوم الى خزانة الكتب • الآن يعرف القراءة • يقرأ حتى يضنيه العذاب الى البكاء ، جالسا على الحصير محدودبا منقبض القلب • واذا بالمرأة العجـوز تقبل داخلة • فى عينيها حنـان عجيب • تأخذ من يده الكتاب وتضع فى يده كتابا آخر مفتوحا على الصفحة المعلومة • يقرأ ويقرأ ، والسؤال يلد سؤالا ، والعذاب يصـير ادمانا • ان ذلك ليس له نهاية •

يقبل على شيوخه فى الأزهر يسمع منهم بانصراف

www.alkottob.com

ودأب ، فاذا سألوه قال لاأدرى ، يتقدم طلاب العلم فى الصفوف ، وهو جالس لسنين طويلة على حصير الغرفة يسمع للشيخ الجالس على الدكة ، وان سأله قال لاأدرى. يأخذ الشيخ به الحنان ، يقول له يابنى ألا تعرف ما اثنان واثنان ، انها أربعة يابنى . يقول الحفيد اننى ياشيخ لاأدرى . الامر عندى ان أربعة أمر مغاير لاثنين واثنين. وأنا لاأدرى . يقول له الشيخ ، آه يابنى الحبيب ، ان تلك هى بداية العذاب . ثم يسأل الشيخ الحفيد يقول له يابنى اكتب شيئا . يكتب الحفيد بخط حسن جميل . ويقرأ الشيخ مصححا فيجد أنه قد ضعف الساكن المشدد، وأبدل بالألف مدة ، وأجرى القاعدة على الشاذ . يقول له الشيخ يابنى انك تخطىء فى الاملاء . يقول الحفيد لاأدرى . انما أجد أن للحروف قلوبا نابضة ، وأرواحا عارفة ، وعليه استحسن ان ادعها تقول ، واذا مافعلت وجدت أن ماتقوله الحروف أدنى الى الصواب . يقول الشيخ آه يابنى الحبيب ، تلك بداية العذاب . ثم يسأل الشيخ الحفيد أن يقرأ قرآنا ، يقرأ الحفيد بضبط صحيح وصوت جميل ، لكنه يمضى من آية الى آية بلا سباق . يرشده الشيخ ، لكن الحفيد يمضى على نهجه ويقول : ياشيخ أنا لا أقرأ فى المصحف ، بل الآيات

www.alkottob.com

حسب ترتيب النزول • يقول له الشيخ يابنى ان ما فى يدنا هو المصحف • يقول الحفيد ، لم يقرأ فيه النبى • يقول الشيخ آه يابنى الحبيب تلك بداية العذاب •

أصبح الحفيد ينسى مواعيد الدروس ولايهتدى الى الغرف • يمشى فى الردهات ذاهلا ، حاملا حمل كتبه مشعث العمامة ، مختلط الهندام ، مفتوح الجبة • يمشى بين الغرف على هدى أذنيه يتسمع • ان وافق ميل نفسه أن يسمع فى الفقه أو البلاغة آو الأصول ، أو ان أطربه أن يشارك فى تجاريب الكيمياء أو علم الحيل ، ان أعجبه شيء مال حيث هوى نفسه • يفرش جبته ويجلس عليها ، فانه من نحول تؤلمه الحصر وخشب الكراسى • يسمع ذاهلا عن غير مايسمع ، آو يراقب منفعلا بما يرى • ثم يقوم ناسيا جبته • جلبابه قصير عن ساقين ناحلتين • يسأله الشيخ أين كان ، يحكى عما جربه • واذا فعل فان مارآه غير مارآه الآخرون ، وماتقوله له الحروف والكلمات غير ماتستطيع آن تفضى به للآخرين • اذ ذاك علم الشيوخ أنه لا جدوى من أن يعلقوه فى آلة العقاب ، انه أبعد منالا من آن يطال • قال له الشيخ يابنى اذهب عنا لم يعد لدينا مانعطيه لك • يابنى انك منذور

www.alkottob.com

للوحدة والألم ، يابنى احمل قدرك على ظهرك وارحل ، انا لنطلب لك الرحمة ٠

واذا أغلق الحفيد عينيه ٠ أغمض مغرقا فى السكون ، يتنصت الى وجيب داخله ٠ ثم اشرع للشيخ عينين عسليتين كبيرتين وقال له : صدقت يا شيخ ، انه بعد القراءة تكون الرحلة ، الرحلة والقراءة ، القراءة والرحلة ، انهما السكتان الى الحب ٠ انى عائد الى قريتنا حيث دار الجد ومقام سيدى قطب ، وحيث الناس فى السكة ذهابا وأوبة مائلو الاكتاف من حمل ثقيل ، نير أو فأس أو خشبة نعش ٠ صدقت الرؤيا يا شيخ وانى لذاهب ، اننى من غد مسافر ٠

حمل الكتب ، وجبة طائرة الجناحين ، وعمامة منفرطة الوثاق ، وعارضين حافلين بزغب أصفر وشعر أسمر ٠ واذ أتعبه السير ، وضايقته الجبة حل شال العمامة وتحزم به ٠ تنحسر الثياب عن قدمين فى نعلين خلقين يكدحان السكة قدما ٠ لايسأل عن الطريق بل يسأل عن الناس ٠ يقرىء السلام ، ويفرح برد السلام ، ويستجيب للعزائم ٠ واذا ماحل بامرأة طيبة ، أو رجل كريم ، جلس صامتا منصتا ، يسمع عن الأرض والزرع ،

www.alkottob.com

عن البذار وعن الحصاد ، عن نجاة المحصول وعن نزول الآفة • يسمع عن البهائم التى هى صحبة الانسان فى رحلة شقائه ، يسمع عن خرسها وعن لغة شكايتها الصامتة والمواجع • ان الواحد ان أراد معرفة الدنيا فلينظر ، ان لها رسما مطويا فى قلب كل انسى حكيم • والواحد ان أراد معرفة الدنيا فلينظر ، مقسومة المعرفة بها على قلوب الخلائق • يمشى الحفيد يسلم بصره وقلبه لشسوع الزمام ، يتشمم الرياح الموشوشة فى شواشى الشجر ، المتموجة فوق زرع الحقول • يمشى من قرية الى سوق الى مولد • يقوم من مصطبة قدام دار الى حصير فى ركن جامع الى عتامة مقصورة تحت قبة ضريح لا يسأل اين قريتهم • يقول فى نفسه انه ان آن الأوان، أخذتنى السكة الى هناك • وقد كان •

جلس قدام باب دارهم يقرأ ، رأى أبوه عينيه خاف • والحفيد قال يا ابت سأعمل بطعامى وبثمن كتبى ، هل تأجرنى بشرطى • يعمل نهاره تحت الشمس • واذا انتهى يوم عمله زار المقبرة ، سقى الصبارات ، وفرغ لنفسه قليلا يتأمل أحوال الدنيا • الصمت فى المقبرة قوال • صمت ماض الى معنى مقصور فى كن افئدة عارفة • يملأ قلبه بهذا الصمت ويؤوب • ان كان

www.alkottob.com

فى يومه بقية اعتنى بالمسجد • واذا فرغ جلس فى ركن عاكفا على كتبه • لكنه فجأة يحس عجز الكلمات ، حتى لتكاد تكون نبشات عفوية سوداء على وجوه الصفحات •

يقوم يطوف باجتماعات الرجال فى الباحات على رؤوس الحارات ، الصمت منعقد ، والرؤوس ناكسة ، والقلوب مخنوقة كأفراخ طيور عارية تحتضر • النساء فى قيعان الدور عراك لا ينفض • كلمات مسمومة من قلوب دامية ملتاعة • مهج تخضن بحارا من قار الحقد الأسود • صور العذاب فى الآيات المكية • صور الموت فى البكائيات • موت بلا قراءة ولا صلوات ولا مواكب• موت بلا جلال • موت غير مشتق من الحياة أو متفرع عنها ، بل هو صياغة زرية للانقراض والفناء •

يفر الحفيد من حصر الروح الى بيت الجد • يجلس فى خزانة الكتب • يخرج لفافة الورق من الاسطوانة • يقرأ أسماء الموتى ، ثم يغمض عينيه يستظهر أسماء الأحياء • يكون فى خياله اصطخاب عالمين ، بحرين بلا برزخ فاصل • الناس تعبر من هنا الى هناك حتى لايعرف الواحد من الذى مات ومن الذى عاش • تشابهت الاسماء ، تشابهت الملامح والقامات وتشابهت السير •

www.alkottob.com

الجد يكتب قراطيس عجيبة بخطه العجيب • لغة لها قدرة على القول مفاجئة ومدهشة • يقوم الحفيد يجلس قبالة الجد على الحصير • يخبط بيده آمامه خبطات رتيبة تخفى سخطا هائلا • فانه يتفكر ، آاذا فسدت الحياة ، أيكون فى ذلك فساد الموت ايضا ؟ • تكربه المسألة حتى يجرب فى بدنه الأوجاع العظيمة • يرفع عينيه الى الجد ليجد على سيماء وجهه حزنا واكتئابا • يقوم • يخرج من الدار • يستدير ليلقى نظره على الباب • اليد الانثوية الرقيقة ممسكة بكرة الحديد الصغيرة • ذلك التكوين الودود وسط اطار من جهامة رمادية • يقول الحفيد فى نفسه نعم ، انه لا بد من الاياب •

الحفيد صموت • الحفيد ناء بنفسه • يعيش بين الناس منصرفا الى ما لا يعرفه الناس • قالوا عنه انه اما ان يكون وليا من اولياء الله أو شيطانا ماردا • هذان لهما أمر الدنيا مقسوم بينهما • هذان مسدودة اليهما المسالك بالتعفف والترفع والمهابة • فلندفع اليه أولادنا يعلمهم • انهم محصلون عنه سر العلم أو سر القوة • والحفيد سعد بهذا وقال افعل •

www.alkottob.com

وحينما جاءه أول صبى هش له • جلسا متقابلين تتلامس الركب وتتقابل الجبـاه • الولد آخرج قلمه وقرطاسه وبقى يترقب • لكن الحفيد قال له احك لى شيئا • قال الولد عم ؟ قال الحفيد عن نفسك وعن الدنيا بدأ الصبى يحكى والحفيـد يسمع مبهورا ، ويسـأل مستفسرا ومستزيدا • والصبى يحكى بلا انقطاع ، واليوم يتصرم • من الضحى العالى حتى مالت الشمس عن السمت • عند ذلك قام الصبى منصرفا • عيناه غير العينين ، وجهه غير الوجه ، وخطوه غير الخطو ، وايماؤه غير الايماء • حينما رآى الصبى ابوه خاف وسأله عما تعلم • قال الولد لأبيه انه تعلم كثيرا • سأل الأب عم ؟ • قال الولد انه تعلم عن نفسه وعن الدنيا ، ولما سئل عن الحساب والاملاء اجاب الصبى بان ذلك قد يأتى غدا •

وفى الغد كان صبيان ، ثم صاروا ثلاثة ، ثم صاروا كثيرين ، صبيانا وبنات • والآباء سألوا عن الحساب والاملاء • والآباء سمعوا اجابات عجيبة لم يعرفوا كيف يفهمونها ، ولم يكن بوسعهم ان يفهموها ، وعليه فقد ارتابوا ان تكون كفرا • قالوا لعيالهم لا تذهبوا اليه ، والعيال قالوا ان ذلك لايفيد ، انه منا وهو فينا ، وان انقطعنا عنه فلن ينقطع وصالنا معه • قال الآباء نطرده

www.alkottob.com

من البلد • قال العيال ان ذلك لا يفيد ، فقد قيلت الكلمة وانه بعد أن تقال الكلمة ـ أى كلمة ـ لاتبقى الدنيا أبدا كما كانت قبل أن تقال الكلمة • قال الآباء لا محالة وظنوا أن الخطأ كامن فى انهم خلوا بين الحفيد وبين الجد • بقوا ساكتين وخائفين ، يرقبون وهم رازحين تحت العذاب •

يذهب الحفيد الى بيت الجد • يجلس قبالته على الحصير • على وجه الجد الشيخ ابتسام يزين نبالة الجبين • بقى الحفيد صامتا وراضيا • قال فى نفسه ان أحسن الوصال يكون من غير كلمات • قال هذا ونذر ألا يتكلم الا قليلا • يقوم الى خزانة الكتب • يأخذ كتابا ويغرق فى القراءة • فاذا كان العماء حتى الاختناق وجد العجوز قادمة ، تأخذ كتابا وتضع أمامه آخر مفتوحا على الصفحة المعلومة • كان لابد أن يطل فى عينيها يوما • وقد فعل • وجد فى العينين جمالا عجيبا • ظل يتأملهما وهى عرفت فأطلت عليه بهما • عرف الآن ماذا تعنى كلمة أم وكلمة أخت ، وكلمة حبيبة ، وكلمة مؤنسة ، وكلمة عشيرة • الكلمات فيها كنوز من المعانى • كنوز فى صناديق مغلقة عليها أقفال صدئة • ماذا يكون العلم

www.alkottob.com

اذا لم يشغله فض الأقفال ، وفتح الصناديق ، واستخراج الكنوز من بطون الكلمات

العيال يسربون فى الحارات ، يمشون من باب الى باب • العيال يدبون على الترع ، وينتقلون من ظل الى ظل • مشيتهم متميزة ، وايماؤهم ووجوههم وعيونهم • العيال يكدحون تحت الشمس ، ويقرأون فى الغرف ، ويغضون الطرف ويقرئون السلام • العيال هناك ، من مكانه يسمعهم ويراهم • واذا اجتمعوا جلس حيث انتهى به المجلس • ينصت اليهم ، يفجؤونه بما لم يكن يعرف •

ولما مات أبوه ورث قطعة من الأرض • قال فى نفسه ينبغى للواحد أن يعرف الزراعة ، وينبغى أن يتعلم من الزراعة ، يعمل بانصراف وعبوس • ولما حسن المحصول ، وكثر جمع العيال وسألهم ، قالوا لاتعط الفقراء شيئا ، بل أوقف مالك على المسجد • انه مؤسسة صالحة فيه يغتسل الناس ويجتمعون للقراءة والمدارسة ، ويقفون مددا طويلة متفكرين خلف الامام ، ان المسجد مؤسسة صالحة • انه الدار والمدرسة منذ الزمن الأول • قالوا له ان يوقف عليه أرضه ، وأن يشترى بريع الأرض حصرا وكيروسينا وكتبا وكراريس ليكن خادما لمسجد ،

www.alkottob.com

لا مالكا لأرض ، وذلك أحسن ثوابا ، وهو أقوم قيلا .

يقضى نهاره يزرع . حتى اذا هده التعب ذهب الى المقبرة يعنى بالقبور ، ويسقى الصبارات ، ثم يقضى هنيهة تحت قبة القطب . ويعود الى المسجد يكنس ويضىء . ثم يخلو الى كتبه أو يذهب الى بيت الجد . يقضى الوقت فى خزانة الكتب . فاذا ماضاقت روحه أتته العجوز وملأت قلبه روحا وراحة ، منحته القوة على أن يقرأ كتابا آخر . سأل الحفيد نفسه : ألهذا يعيش الجد ولايموت . أتراها بما تمنحنى من حب قادرة على أن تبرئنى من العلة ؟.

انه مريض ، وهو يعيش بعلته ويصابرها . يرحل الى عاصمة الاقليم . يغمض العين عن وساخة المدينة ومايبهر فى ناسها وعمارها، أو يقصدالشيوخ العارفين. يجلس اليهم ويسمع منهم . ثم يطوف بدكاكين الكتب يقضى فيها الوقت الطويل ، ثم يعود منها بما أحب . وهو يخاف الأطباء ان شمخوا بأنوفهم وقالوا انهم يعرفون ، ويركن اليهم ان هم أحسنوا الانصات ، وبانت فى عيونهم الحيرة ، وعلى جباههم التعب والتفكر . عندئذ يسمع منهم ويشترى مايصفونه من دواء . وهو يمر بدكاكين العطارة . يتنقل بين الأصناف متتبعا أنفه حتى

www.alkottob.com

يعـود بلفـائف كثيرة ، مايغـلى ومايـنقع ، ومايطبخ ومايستحلب • يتسمع على دبيب جسده بالليل ، يصابر علته ويداويها بالعقاقير والأعشاب • لكن لا محالة •

العلة تجتـاح كيـانه كمـاء النهر يغمر الأرض الشرقة • يهب قائما من فراشه • يفتح باب داره ، وقد أوشكت أشعة الضوء الأولى أن تولد فى حبات الندى على أوراق البراعم الغضة يمضى فى الحـارات ذاهـلا عن مواجعه • الدور غير الدور • حقيقتها ان غابت عن العين لم تغب عن الأذن ولا عن الفؤاد • اذا ما خلى الواحد بين قلبه وبين الخواطر • يرهف السمع ويرهف الحس ، الهجس غير الهجس • فى هـذا الموقع من الدنيا صرع الخوف قلبه كل مرة • الآن لا • أهو الموت اذن أم هـو يهرف من العلة ؟ ، أم أنه من صميم القلوب الهاجعـة تحت اكوام الرقاد ما عادت تنزف الكمات المسمومة ، التى كسرت قامته ، ونكست هامته ، ونشرت العلة فى عظامه؟ كلمات أخر ، تبارك العيال • يرهف الوجد • يجرى حافيا حتى يرتمى بجسده كله مفرود الذراعين ، مبسوط الكفين ، على مصراع باب دار الجد • برودة مسامير الحديد تنشر الراحة فى قلبه • تسعى اصابعه متلمسة باحثة عن تلك اليد حتى يجدها • يتحسس اصابعهـا

www.alkottob.com

النحيلة المثلوجة وهو يضحك ، والعرق يتصبب من جسمه المحموم • يدفع الباب داخلا • يميل على غرفة الجد • الجد والعجوز متربعان على الحصير • الركب متلامسة ، والوجهان متقاربان ، والمصباح ساهر ، وبينهما الحامل عليه كتاب مفتوح وهما ميتان •

جلس الحفيد ثالثا لهما • جسده محموم ينتفض ، وعرقه يتصبب ، ودموعه منهمرة • يطل على الصفحة المفتوحة ويقرأ : «يس • والقرآن الحكيم • انك لمن المرسلين على صراط مستقيم • تنزيل العزيز الرحيم • لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون •••» ويظل يقرأ حتى يملأ ضوء النهار الغرفة ، يطفىء المصباح ويسجى الجثتين وهو يجهر بالقـــراءة : «انا نحن نحيى الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم وكل شىء أحصيناه فى امام مبين •»

أدنى الجلابيب على السيقان • وضـــع الأكف على الصدور • اطبق الفمين وأغمض العيون • وضع الحامل وعليه المصحف عند الرأسين • جهر بالقراءة ليغـالب ذلك الفراغ الذى انتشر فى جوف الدار بموت هذين الانسانين الحبيبين • لكنه فراغ لا يدفع • انه اليتم الذى

www.alkottob.com

اذا أصاب القلب لايبرأ منه القلب بعد ذلك آبدا · مضى الحفيد وهو يجهر بالقراءة الى خزانة الكتب · جلس على الحصير الى الطبلية · اخذ اسطوانة النحاس واخرج منها لفافة الورق · فردها امامه وشرع يتأملها · اخر كلمة فى سطر كانت « القطب » · وقبلها كانت كلمة « كريمة سيدى حسن الدين » ·

اخذ الحفيد ريشة الجد وغمسها فى حبر الدواة · واضاف الى جوار كلمة « القطب » فى السطر الاخير من السجل كلمة « الحفيد » · تأمل لمعة الحبر · نثر عليها مسحوق التجفيف الابيض ثم نفخه · نظر الى الكلمة · راعه ان خط يده يشبه خط يد الجد تماما · طوى لفافة الورق واعادها الى الأسطوانة النحاسية

عاد الحفيد الى غرفة الجد · جلس على الحصير حيث كان يجلس وهو طفل · يغمض عينيه ويحاول ان يستعيد ذلك الامان القديم فلا يجده · نعم لقد مات الجد · تذكر العيال · انهم الآن فى الحقول أو فى الدور فى الحارات أو على الترع · أو لعلهم فى المسجد يتدارسون · أحس الحفيد بالفرح وبالخوف · شعور يشبه أن يكون قلقا · انها النعمة ان يبقى الواحد طفلا

www.alkottob.com

فى كن أب كبير ، وهو العذاب أن يكون الواحد أبا وراءه عيال · لكن لا محالة · القى نظرة على الجثتين المسجاتين وقام · خرج من غرفة الجد الى الباحة الصغيرة ، الى وهج النهار فى الحارة ، وذا سار خطوة التفت الى بـاب دار الجد · اليد الانثوية الرقيقة ممسكة بكرة الحديد الصغيرة قال الحفيد فى نفســه : ما أجمل هذا ، وقـال انه لن يستطيع ان يعود مرة اخرى · لكنهم سيأتون ، اناس أخرون ·

مشى فى الحارة · الشمس شديدة · يمشى كأنما يحملها على رأسه · يرتعد من الحمى ، والعرق يتصبب من جسمه ، والدموع تنهمر من عينيه ، ولايكف عن القراءة · اشتاق لأن يراها · مضى الى دارها · يحبها منذ سنين · ولم يكن يملك الا ان يحبها · وهو منذ سنين معتاد على رؤيتها · لها غرفة على السطوح صغيرة وحيدة تحت ثقل الشمس · يدفع الباب ويدخل ويغلقه وراءه · تقبل عليه من ركن غرفتها مرحبة · يجلس اليها صامتا منصتا · تحكى وهو يسمع ملهوفا · تحكى من كربتها وعن عذابها · ولما ادركت انه يسمع ويفهم امسكت يديه العجوزتين بين يديها البضتين الطفليتين ، ثم وضعت

www.alkottob.com

خدا طريا ناعما فى حفانه ، لايزال يحس بدفئه فى يديه حتى الآن ·

لكنه اليوم وجدها عارية ، جالسة فى الطست على كرسى تستحم · نظر اليها · ترددت قليلا ثم قالت لا بأس، جلس قبالتها وهى واصلت استحمامها · تكف عن صب الماء بين آن وآخر ، حتى لا تطغى كركرته على صوتها وهى تحكى · تظل تقول وقطرات الماء كالدموع منحدرة على جسمها · أدرك الحفيد أنه أحب جسمها دائما · الحمام يشيع فى سماره ورديه يانعة وهى تحممه باعتناء وحنان · وعندما انتهت جففت نفسها متأنية · قال الحفيد فى نفسه ان المرأة كائن وسيم وفيه نبل · وهى لاحظت فى عينيه محبة · ربما ـ آشرق وجهها بالابتسام · قالت له انها طلقت من زوجها ، وانها تحس أن روحها طليقة متحررة ، وأن قلبها الآن متعلق بواحد من العيال فارع عريض الكتفين ، محدودب واسع العينين ، لايتكلم الا قليلا ، واذا تكلم كان خفيضا هامسا ·

تحكى رتيبة الكلمات نضيضة المقاطع ، عذبة الصوت · تحكى والحفيد يتأمل الفرحة فى وجهها الوسيم ، وعينيها البنيتين ، وحاجبيها المتقوسين ،

www.alkottob.com

وأسنانها الناصعة كقطع الصدف · الآن ارتدت قميصها ومشطت شعرها · الآن هى كالعروس فى انتظار الحلوة · قال لها الحفيد : الآن قومى وليشق صراخك أجواز الفضاء ينعى الى الناس موت الجد · وقد كان ، وتجاوبت أجواز الفضاء بالنبأ المرتقب ·

★ ★ ★

فتح الحفيد عينيه · لازال جالسا على ظهر القبر بين الشاهدة والصبارة · الشمس تضربه فى يافوخه ، وعيناه معشيتان ، لكنه شيئا فشيئا يرى الأشياء حوله · ومن بعيد يأتيه صوت القراءة والنواح · ألقى نظرة على امتداد القبور ، ثم حول بصره الى قبة القطب وبان على ملامحه شبح ابتسام ، نظر الى السكة المؤدية الى القرية ، موكب الجنازة آيب الآن ، وهو موشك أن يصل الى البلد · قال الحفيد فى نفسه انه لابد من أن يقوم ليشترك مع الناس فى العزاء ·

حمل حمل كتبه ومشى فى السكة الى القرية · كلما اقترب منها علا صوت القراءة · قبل أن يدخل القرية التفت الحفيد الى المقبرة · المقام وسط جماعة القبور · أقبل الحفيد على القرية · انخرط فى القراءة · كل

www.alkottob.com

الرجال قارئون ، وكل النساء معددات . الأصوات تزلزل القرية من جذورها . الناس أمام أبواب الدور على جانبي الحارة صفوفا صفوفا . فقهاء عور أو عرج أو منتفخو الكروش ، صفر الوجوه . عيال معلولون . رجال ونساء وأطفال . كل واحد يحمل فى ثلاثة أرباع جسده الموت . يقرأون الصمدية على روح الميت الذى دفن . «قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد» . الآيات راياتٍ خفاقة . الحفيد يقرأ وهو محموم دامع . وجد أن صوته عال جدا . وفرحان جدا ، وجميل جدا أيضا . ضحك وهو محموم ذائب الدماغ . قال فى نفسه وهو نشوان : «نحن الذين نحمل فى أجسامنا من الموت أكثر مما نحمل فيها من الحياة . نحن فقط العارفون بخبر الآخرة ، نحن القادرون على أن نعطى الدنيا الحياة» ثم أسلم الحفيد عينيه للغمض .

برلين الغربية فى يوليو ١٩٨١

www.alkottob.com

صدر من هذه السلسلة :

● الرجل المناسب	(قصص)	فتحي غانم	١
● دموع رجل تافه	(قصتان)	عبد الرحمن فهمي	٢
● الجميع يربحون الجائزة	(قصص)	ابو المعاطي ابو النجا	٣
● بالامس حلمت بك	(قصص)	بهـاء طاهر	٤
● رباعيـــات	(قصص)	شكري عياد	٥
● من قتل الطفل	(مسرحيتان)	عبد الغفار مكاوى	٦
● منتصف ليل الغربة	(قصص)	جمال الغيطاني	٧
● رشق السكين	(أقاصيص)	محمد المخزنجي	٨
● وعلى الأرض السلام	(رواية)	فاروق خورشيد	٩
● الأشواق والأسى	(قصص)	عبد الحكيم قاسم	١٠
● والبحر ليس بملآن	(رواية)	جميل عطية ابراهيم	١١
● الذي تحدر الشمس	(قصص)	سحر توفيق	١٢
● لا تسقني وحدي	(رواية)	سعد مكاوى	١٣
● كهف الأخيار	(قصص)	شكري عياد	١٤
● محطة السكة الحديد	(رواية)	ادوار الخراط	١٥
● حصار القلعة	(٣٠ شعرية)	محمد ابراهيم ابو سنة	١٦
● اربعة فصول شتاء	(قصص)	محفوظ عبد الرحمن	١٧
● سارق الكحل	(قصص)	يحيى حقي	١٨
● انا الملك جئت	(قصص)	بهاء طاهر	١٩
● تاريخ حياة صنم	(قصص)	عبد الرحمن فهمي	٢٠
● الوداع : تاج من العشب	(قصص)	عبده جبير	٢١
● النجوم العالية	(قصص)	محمود الوردانى	٢٢
● قلوب خالية	(رواية)	عبد الرحمن الشرقاوى	٢٣
● الشجرة والعصافير	(قصص)	ابراهيم عبد المجيد	٢٤
● عطشان يا صبايا	(قصص)	سليمان فياض	٢٥
● طرف من خبر الآخرة	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	٢٦

www.alkottob.com

العدد القادم :

● طعم القرنفل	(قصص)	جار النبى الخلو

فى أعدادنا القادمة :

● السحر الأسود	(رواية)	شفيق مقار
● تسلق الجدار الأملس	(قصص)	حسنى عبد الفضيل
● احتضار قط عجوز	(قصص)	محمد المنسى قنديل
● ما أجملنا	(مسرحيتان)	محفوظ عبد الرحمن
● حبات النفتالين	(رواية)	عالية ممدوح
● رحلة فى الليل	(قصص)	عبد الله خيرت
● الخوف	(رواية)	عبد الفتاح الجمل
● لم يعد الضحك ممكنا	(قصص)	يوسف القعيد
● المظلات	(قصص)	عائد خصباك
● الخنان الصيفى	(قصص)	احمد الشيخ
● حبال السأم	(قصص)	فاروق خورشيد
● عفاريت الجبانة	(مسرحية)	نعمان عاشور
● عكس الريح	(قصص)	يوسف ابو رية
● هذا ما كان	(قصص)	محمد البساطى
● زهر الليمون	(قصص)	علاء الديب
● رياح الشمال	(قصص)	ابراهيم أصلان
● القط البرى	(رواية)	سليمان فياض

تطلب كتب هذه السلسلة من :

● باعة الصحف ● مكتبات الهيئة ● المعرض الدائم للكتاب بمقر الهيئة ● معارض الكتاب بداخل مصر والخارج ● مكتبات الهيئة المتنقلة بالأحياء والأقاليم .

www.alkottob.com

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٦/٢٦٧٣

ISBN ٩ ـ ٠٩٤٧ ـ ٠١ ـ ٩٧٧ ـ

www.alkottob.com

library4arab.com
www.alkottob.com

مختارات فصول

تصدر أول كل شهر

هذه رواية مصرية « فريدة » : تجربة ، ورؤية ، ولغة ، عن علاقة الإنسان بـ « الآخرة » لـواحدة من أكثر تجارب النفس الانسانية كلها ثراء وإلهاما . « الآخرة خير وأبقى . . » . . وبهذه المقارنة بينها وبين « الأولى » تصبح هى الامتداد المقابل ، أو الغاية ، أو النقيض . . ولكن وجدان الإنسان لا يفتأ يتشوف ، أو يخشى . فى لغة عبد الحكيم قاسم هنا مذاق تراثى خاص ، حيث يمتزج تراث « الفصحى » النابع من القرآن الكريم ذاته ، مع تراث « العامية » الخصيب النابع من ألسنة الناس وحياتهم ، والطامح إلى الانتساب لفصحى العربية انتسابا أصيلا لادخل فيه . وهنا تصبح القرية المصرية « رؤية تراجيدية » ، وتصبح أكثر الأماكن إثارة للكآبة أو النفور ، مألوفة مأهولة . إنها الرواية الخامسة للمؤلف بعد : أيام الانسان السبعة ، محاولة للخروج ، المهدى ، صور الغرف المقبضة ، وكلها كتبت بعد عام ١٩٦٥ !

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٥٠ قرشا

www.alkottob.com